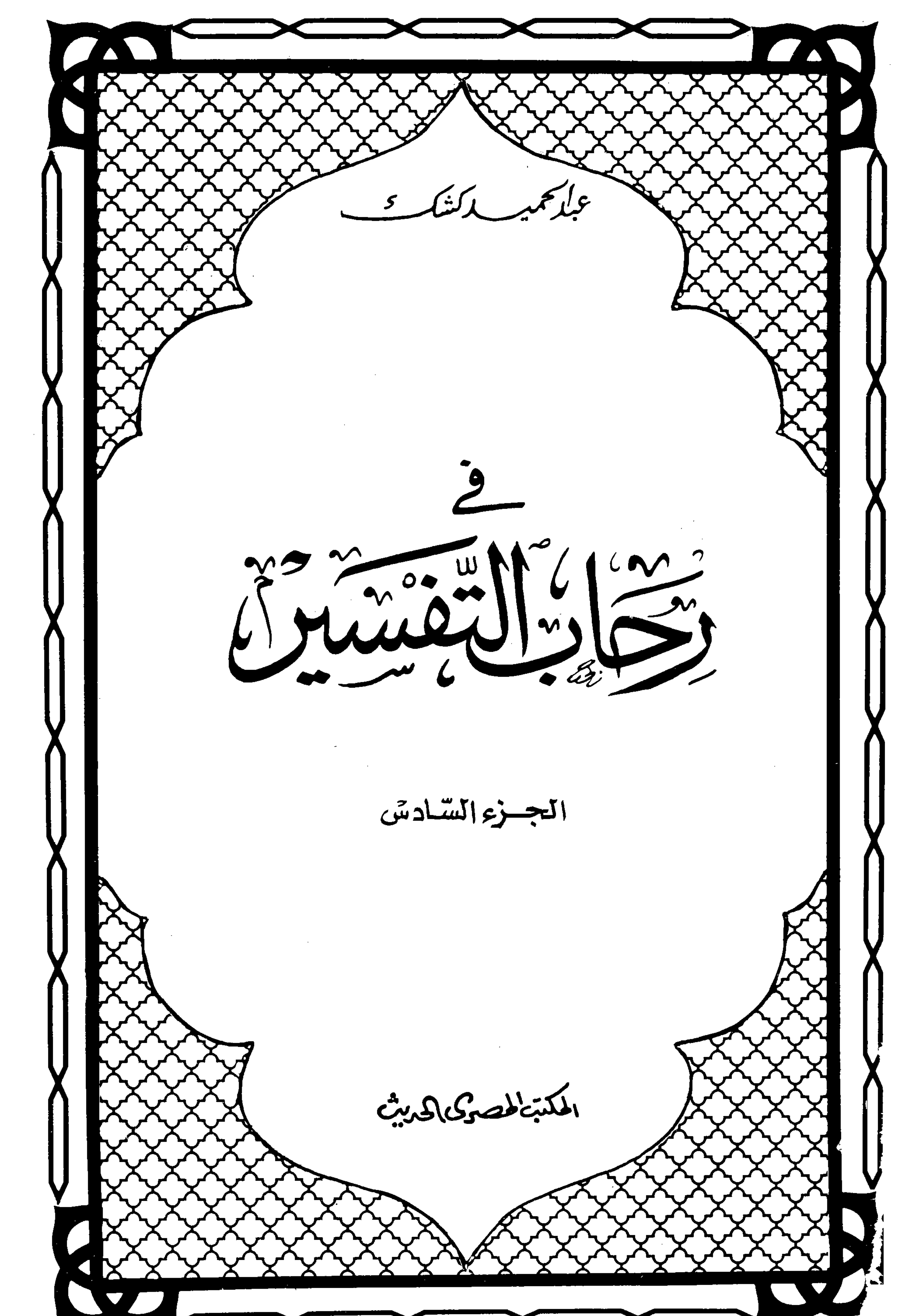


عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء السادس

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهـــر بالســوء

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

المفردات : ﴿ **الجهر** ﴾ : الإعلان يقال جهر برأيه أعلنه ، ﴿ **السوء** ﴾ : كل ما يسوؤك فعله أو قوله ، ﴿ **إلا من ظلم** ﴾ : أى وقع عليه ظلم . ﴿ **سميعاً** ﴾ : أى للأقوال . ﴿ **عليماً** ﴾ : أى بالأفعال والنيات . ﴿ **إن تبدوا** ﴾ : أى تظهروا ﴿ **عفوّاً** ﴾ :يتجاوز عن السيئات .

التفســير

اشتملت هذه الآية الكريمة على خلق إسلامى ، عسى أن يستمسك به المسلمون فى عصر كثر فيه القيل والقال ، والجهر بالسوء فى كل مجال ومكان وقد ورد فى هذه الآية أقوال للأئمة المفسرين

عن ابن عباس رضى الله عنهما يقول : لايحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله « إلا من ظلم » وإن صبر فهو خير له .

وقال الحسن البصرى : لايدعو عليه ، وليقل اللهم أعنى عليه واستخرج حقى منه[١]، وفى رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعُوَ على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه ، وقال عبد الكريم بن مالك الجزرى : فى هذه الآية هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله تعالى : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[٢].

---

(١) وتتمة الدعاء : « اللهم حُل بينه وبين ما يريد ما يريد من ظلمى « القرطبى ج ٦ ص ١ »

(٢) الآية رقم ٤١ من سورة الشورى

(٣) الآية رقم ٢٩ من سورة فاطر

(٤) الآية رقم ٣١ من سورة إبراهيم

وعن أبى هريرة أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : إن لى جاراً يؤذينى فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق فكل من مربه قال : مالك ؟ قال جارى يؤذينى فيقول اللهم العنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل : أرجع إلى منزلك والله لا أوذيك أبداً

قوله تعالى ﴿ إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا ﴾

بعدما بين سبحانه أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، إلا من كانت له مظلمة ، فله الحق أن يجهر بها طلباً للإنصاف والعدل ، وضرب الرسول ﷺ أمثالاً فى سنته الشريفة ، بعد ذلك رغب الله فى الخير وفعله ، سواء أكان على سبيل العَلَن أو السر ، ما دامت النيات خالصة لله ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾[١] وقال تعالى ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾[٢] وقال جلت قدرته ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾[٣] وقال عظمت حكمته ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٤] وهنا فى هذه الآية ﴿ إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴾ وإذا كان فعل الخير سراً أو علانية عملاً جليلاً ؛ فإن العفو عن السوء خصلة من خصال الكرم إذ العفو عند المقدرة صفة من أجل الصفات .

ورد فى الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفى الحديث الصحيح « ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه » .

عاقبة الكفر والإيمان

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾

المفردات : ﴿ سبيلا ﴾ : طريقا . ﴿ أعتدنا ﴾ : هيأنا وأعددنا .

---

(١) الآية رقم /٢٩ من سورة فاطر
(٢) الآية رقم /٣١ من سورة ابراهيم
(٣) الآية رقم /٢٧ من سورة البقرة
(٤) الآية رقم /٢٦ من سورة البقرة

بين الله سبحانه هذه الآيات أن للإيمان ركنين ينبى عليهما ماعداهما ، ولا يقبل الإيمان بدونهما ، وهما الإيمان به وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر ، ومن أنكرهما[١] أو أحدهما فقد كفر ، وعاقبته العذاب الأليم فى جهنم وبئس القرار .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا** ﴾

إن الكافرين بالرسل فريقان :فريق لايؤمن بأحد منهم لإنكارهم النبوات ، وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله ، وأكثر الملحدين فى هذا العصر من ذلك الفريق .

وفريق آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض ، كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد ، فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد ، والفريقان كافرون مستحقون للعذاب ولا عبرة بما يدَّعونه إيمانا .

﴿ **وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً** ﴾ . أى وأعددنا لكل كافر سواء أكان منهم أم من غيرهم عذابا فيه ذل وإهانة لهم جزاء كفرهم الذى ظنوا فيه العزة والكرامة .

ذلك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحيه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحاً ، ولا يهتدى إلى ما يجب لله من الشكر ، ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذى يرضيه ، ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لا تهمهم إلا شهواتهم .

كما أن من يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض . كأهل الكتاب – لا يعتد بقولهم ، لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق : إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم ، ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها فى محمد ﷺ ، فهو قد جاء بكتاب حوى مالم يحوه كتاب آخر ، مع إنه نشأ بين قوم أميين ، ونُقِل كتابُه وأصولُ دينه بالتواتر القطعى والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفى الذكر ، ذكر حال فريق ثالث فقال : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم** ﴾ أى والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم ، علما منهم بأن جميعهم مرسل من عند الله وما مثلهم إلا كمثل ولاة يرسلهم السلطان إلى البلاد ، ومثل الكتب التى جاءوا بها مثل القوانين التى يصدر السلطان مراسيمه للعمل بها ، فكل وال منهم إنما ينفذ أوامر السلطان ، وكل قانون يعمل به لأنه منه ، وكل قانون جديد ينسخ ما قبله ويمنع العمل به ، أولئك يؤتيهم الله أجورهم بحسب حالهم فى العمل ، لأنهم وقد صح إيمانهم به وبرسله ،

(١) من أنكر الألوهية الحقة لله فقد كفر ، ومن أنكر الرسالات جملة أو تفصيلا فقد كفر

ويهديهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك الإيمان الصحيح .

ولم يقل فى هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقاً كما قال ، فى ﴿ **أولئك هم الكافرون حقا** ﴾ لئلا يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح ، فيغتر بذلك ويترك العمل النافع ، وهذا مما يتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقاً بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[١]

﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ أى وكان الله غفوراً لهفوات من صح إيمانه ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيما به يعامله بالإحسان ويضاعف حسناته ويزيد على ما وعد تفضلا منه ورحمة .

من قبائح أهل الكتاب

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

المفردات : ﴿ **جهرة** ﴾ : المراد رؤيته جهرة[٢] .. ﴿ **الصاعقة** ﴾ : نار تنزل من السماء والظاهر أنها الشرارة الكهربائية التى تظهر فى السماء .. البينات : الدلائل الواضحة على نبوة موسى كفلق البحر واليد البيضاء والعصا . ﴿ **الطور** ﴾ : اسم الجبل الذى كانوا مقيمين أسفله ... لا تعدوا فى السبت : لا تظلموا أنفسكم بالصيد فيه .. ﴿ **غلف** ﴾ : جمع غلاف وهو الظرف والمراد أوعية للعلم

(١) الآيات رقم ٢، ٣، ٤ من سورة الأنفال

(٢) أى كما يرى الناس بعضهم مواجهة تعالى الله عن ذلك

فليست فى حاجة إلى ما يقول ، ويصح أن يكون جمع أغلف والمراد : مغطاة بأغطية خلقية لا يصل إليها شيء مما تقول ... ﴿ **طبع الله عليها** ﴾ : ختم الله عليها بالخاتم وقيل صارت كالنقود المسكوكة فلا تقبل غير النقش الذى عليها ... ﴿ **بهتانا** ﴾ : كذباً يبهت صاحبه عند سماعه ويتعجب منه

قوله تعالى : ﴿ **يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء** ﴾ ، قال محمد بن كعب القرظى والسدى وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، وقال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان[١] بتصديقه فيما جاءهم به ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد ، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور فى سورة « سبحان »[٢] فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[٣]

ولقد أظهر الله مكنون نفوسهم ، وما انطوت عليه من عناد ، فقال فى سورة الأنعام ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[٤]

قوله تعالى : ﴿ **فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة** ﴾ وذلك كما جاء بيانه فى سورة البقرة : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾[٥] وهنا يقول تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ والصاعقة نار من السماء ، أو ما يعبر عنه بالشرارة الكهربية ، أزهقت أرواحهم

ومن قبائحهم : أنهم اتخذوا العجل فى غيبة موسى كما جاء ذلك مفصلاً فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[٦] وقال الله تعالى فيهم : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾[٧] وقد جاءت قصة العجل مفصلة فى سورة طه فى قوله جل شأنه ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى .. ﴾ إلى أن يقول تعالى : ﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى .**

(١) أى إلى أشخاص بأسمائهم وأعيانهم
(٢) سورة الاسراء و بنى اسرائيل
(٣) الآيات رقم ٩٠،٩١،٩٢،٩٣ من سورة الاسراء
(٤) الآية رقم ٧ من سورة الأنعام
(٥) الآية رقم /٥٥ من سورة البقرة
(٦) الآية رقم /١٤٨ من سورة الأعراف
(٧) الآية رقم /١٥٢ من سورة الأعراف

قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[١]

كل ذلك حدث بعدما جاءهم موسى بالآيات البينات ، كاليد و العصا وفلق البحر فعفا الله عن ذلك كما جاء فى قوله جل شأنه فى سورة البقرة : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾[٢] **وفى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾**[٣] **وآتى الله موسى سلطانا مبينا وحجة قوية على صدق رسالته قوله تعالى : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾** الطور [٤] هو الجبل الذى كانوا يقيمون فى واديه فإن اليهود لما تمردوا واستكبروا على الأخذ بأحكام الله فى التوراة وعتوا عتواً كبيراً ، لأنهم كما يقول بعض الحكماء : إن شعب بنى إسرائيل شعب ملح الرقبة ، لما كان منهم ذلك رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ليدفعهم دفعاً إلى الأخذ بما فى التوراة كما قال تعالى فى سورة الأعراف ﴿ أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[٥] وقوله تعالى ﴿ **بميثاقهم** ﴾ أى بسبب أخذ الميثاق عليهم ﴿ **وقلنا لهم ادخلوا الباب سجَّداً** ﴾ . المقصود به باب بيت المقدس أخبرناهم بذلك على ألسنة رسلنا إليهم ، والمقصود : ادخلوا الباب ساجدين خاضعين لله تواضعاً ﴿ **وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت** ﴾ فقد نهاهم الله عن صيد الحيتان يوم السبت ، ولكنهم خادعوا واستعملوا الحيل . كما هو شأنهم فى كل زمان ومكان - قال تعالى فى سورة الأعراف . ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[٦]

قوله تعالى : ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ الميثاق الغليظ العهد المؤكد ، أى : وأخذنا عهداً ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يتعدونها ويتبع ذلك البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن فى الفصل التاسع والعشرين ومن بعده من سفر تثنية الاشتراع ، وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

قوله تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف** ﴾ .

هذه جرائم اقترفها اليهود ، نقضوا العهود والمواثيق وهذا طبعهم وديدنهم ، قال تعالى ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ﴾[٧]. وكفروا بآيات الله وأنكروا المعجزات قال تعالى ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً

---

(١) الآيات من /٨٣ إلى ٩١ من سورة طه
(٢) الآية رقم /٥٢ من سورة البقرة
(٣) الآية رقم / ٥٤ من سورة البقرة
(٤) من جبال سيناء وهو جبل المناجاة انزلت التوراة على موسى عنده
(٥) الآية رقم /١٧١ من سورة الأعراف ونتق الجبل رفعه من مكانه فوقهم حتى ظنوا أنه سيسقط عليهم
(٦) الآية رقم /١٦٣ من سورة الأعراف
(٧) الآية رقم /٥٢ من سورة الأنفال

كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبرما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاً ﴾[١] واعجب معى لقوم رأوا الآيات بأعينهم وأحسوها وعاشوا فيها ، فالبحر قد انفلق وصار كل فرق كالطواد العظيم وأقدامهم لا تزال مبتلة بماء البحر ، جحدوا كل هذا ونسبوا من أنجاهم ،(وقالوا ياموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)ومن جرائمهم أنهم يقتلون الأنبياء ثم يقيمون أسواقهم كأن شيئا لم يكن ومن الذين قتلوهم زكريا ويحيى .

قوله تعالى ﴿ **بغير حق** ﴾ هذا للبيان لا للاحتراز ، فليس هناك من الأنبياء ما يقتل بحق ، لأنهم إذا ذكروا بآيات الله ﴿ **قالوا قلوبنا غلف** ﴾ أى مغلفة محجوبة عن الحق كما قال مشركوا العرب لرسول الله ﷺ ﴿ قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾[٢].

قوله تعالى ﴿ **بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا**﴾**والمراد بالطبع الختم، وذلك بحجب النور عنها بسبب كفرهم وجحودهم** ﴿ **فلا يؤمنون إلا قليلا** ﴾ والإيمان القليل كالعدم كإيمانهم ببعض الأنبياء وكفرهم بالآخرين .

قوله تعالى ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾ ، أى وبكفرهم بعيسى ، ورمى أمه وقذفها بالبهتان ، وهو أعظم الكذب والمراد به الزنا ، قال تعالى : ﴿ **فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم** لقد جئت شيئا فريا . ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغيا ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله** ﴾ وهذا منهم إدعاء باطل وكذب على الله ورسوله ، وقد وصفوه بأنه رسول الله لا لإيمانهم بذلك ، إنما قالوها على سبيل التهكم والسخرية ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ أى وما قتلوه كما أدعوا وما صلبوه كما أشاعوا إنما خلع الله شبهه على الذى دل عليه ، وهو يهوذا الأسخريوطى قال الشيخ المراغى فى تفسيره :

هذا القول المؤذن بالجرأة على الحق بالباطل والاستهزاء بآيات الله وذكروه بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته ، بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم ، ، لا **الألوهية – كما ادعت النصارى – إذ** جاء فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته »

﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ أى والحال أنهم ما قتلوه **كما ادعوا** وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ، ولكن وقع لهم الشبه ، فظنوا أنهم صلبوا عيسى ، وهم إنما صلبوا غيره ، ومثل هذا الشبه يحدث كثيرا فى كل زمان ، وتحكى عنه نوادر وحوادث غاية فى الغرابة لكنها **قد وقعت فعلا** .

فقد ذكر بعض المؤلفين فى الطب الشرعى من الإنجليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ فى فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصا للتعرف على شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو ،

---

(١) الآيات رقم /١٣٨ ، ١٣٩ ، وجزء من ١٤٠ من سورة الاعراف ومعنى متبر ماهم فيه أن عملهم باطل يعاقب فاعله بالعذاب الشديد

(٢) الآية رقم /٥ من سورة فصلت السجدة (٣) الآيتان رقم /٢٧ ، ٢٨ من سورة مريم

وقال خمسون إنه غيره ، والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدوا رأيا ، ثم اتضح من التحقيق ان هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجة مارتين محوطا بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات ، وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم فى محكمة أخرى فأحضر ثلاثين شاهدا أقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقون

على أن هذا الحادث[١] من خوارق العادات التى أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم عليه السلام وأنقذه من أعدائه ، فألقى شبهه على غيره وغير شكله فخرج من بينهم وهم لا يشعرون ، وفى أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ **وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ماهم به من علم إلا اتباع الظن** ﴾

المعنى أن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى تردد من حقيقة أمره ، إذ ليس لهم به من علم قطعى الثبوت وإنما هم يتبعون الظن والقرائن التى ترجح بعض الآراء على بعض ، وقد جاء فى بعض الأناجيل التى يعوّلون عليها أنه قال لتلاميذه : (كلكم تشكون فىَّ هذه الليلة) أى الليلة التى يطلب فيها للقتل (إنجيل متى)

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه أو عرف الناس بأنهم سيشكون فيه فى ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعاً ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من دونهم فى أمره ؟

قوله تعالى : ﴿ **وماقتلوه يقينا** ﴾ أى وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه ، إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التى يعول عليها صريحة فى أن الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطى ، وقد جعل لهم علامة أن من قبَّله يكون هو المسيح ، فلما قبّله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا[٢] يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطى نفسه ظنا أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ومن هذا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

الخــلاصة : أن روايات المسلمين جميعها متفقة على : أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدى قتله فقتلوا آخر ظنا منهم أنه هو – فإن قال قائل : إذا كان المسيح قد نجا من القتل والصلب ، فأين (هو) ؟؟

نقول : إن الله تعالى أجاب عن هذا ﴿ **بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ وهذه عقيدة المسلم ، وليس رفع عيسى أمراً غريباً بعد أن أخبرنا الله تعالى بقوله : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها** ﴾[٣] فليس رفع أهل الأرض إلى السماء بمستبعد على من يمسك

(١) أى إلقاء الله الشبه على يهوذا الحاورى الذى خان رسول الله عيسى عليه السلام

(٢) ينظر فى الفصول : الخامس عشر بعد المائتين وما بعده من انجيل برنابا بتحقيق الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – وطبع محمد على صبيح سنة ١٩٥٤

(٣) جزء من الآية رقم /٤ من سورة الحديد

السماوات والأرض أن تزولا وليس ببعيد على من قال وقوله الحق : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[١] وبعد قوله تعالى : ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ يجب التسليم واليقين فيما قاله أصدق القائلين ، وليس لأحد أن يتجاوز حدود العبودية ، فيسأل كيف رفع وكيف حاله فى السماء ؟ لأن ما أخبرنا الله به وجب التصديق به والوقوف عنده ، ومعاذ الله أن يقول المسلم رجماً بالغيب

قوله تعالى : ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ عزيزاً لا يغلب ولايعجز حكيماً لا يعبث ، فقد رفعه بعزته وقدرته وفى الوقت الذى هجموا عليه ليقتلوه فكان حكيما إذ نجاه منهم

قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ الضمير فى قوله تعالى ﴿ **ليؤمنن به** ﴾ أى بالمسيح ، والضمير فى قوله تعالى : ﴿ **قبل موته** ﴾ **أى قبل موت الكتابى ، فما من أحد من أهل الكتاب يحضره الموت : يهوديا كان أو نصرانيا إلا ويرى المسيح وقد برأ من أقوالهم فيه ، يأتيه مقراً بأنه عبد الله ورسوله موبخا إياه بما قاله فيه من أنه الله أو ابن الله ، فإذا ما قامت الساعة وقف المسيح شهيداً عليهم بالضلال ومجاوزة الحق ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾[٢] وإنما يسأله الله هذا السؤال وهو العليم بكل شىء ويعلم أنه دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، يسأله ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجارة فى حلقومهم على لسانه ، أى هذا الذى زعمتموه إلها أو ابنا لله يبرأ من قولكم ويعلنها صريحة واضحة فى ساحة العرض على الله .**

قال بعض العلماء[٣] فى تفسير هذه الآية : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ الخ ...

أى وإن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين ، فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لازيغ فيه ولاضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته وليس بالكذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله ، وليس بإله ولا هو بابن لله وفائدة إخبارهم بذلك بيان أنه لا ينفعهم حينئذ فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه ، مع عدم الجدوى والفائدة ﴿ **ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** ﴾ أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم ، كما حكى الله عنه من قوله : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً

(١) جزء من الآية رقم ٤٤ من سورة فاطر

(٢) الآيتان رقم /١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة

(٣) قال بذلك ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة ، رواه القرطبى ج ٦ ص ١٠ وما بعدها

مادمت فيهم ﴾[١] فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار ، وعلى الكافر بالكفر ، إذ هو مرسل إليهم وكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[٢]

وقد ورد فى الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته ، روى البخارى عن عبادة بن الصّامت قال : قال رسول الله ﷺ « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا أحضر (حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته » وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما « ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار »

وهذا يؤيد ماروى عن ابن[٣] عباس رضى الله عنها فى تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقبيح .

جرائمهم وعقوبتهم

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

المفردات : ﴿ **هادوا** ﴾ : المقصود بهم اليهود . ﴿ **بظلم** ﴾ : أى بسبب الظلم فالباء تفيد السببية . ﴿ **بصدهم** ﴾ : منعهم . ﴿ **الراسخون** ﴾ : الثابتون فى العلم المتقنون له .

كلمة عن المسيح ابن مريم

قبل أن نأخذ فى تفسير هاتين الآيتين نرى من المفيد – وقد سبق الحديث عن المسيح ابن مريم – نرى أن نذكر هنا ماورد فى شأن المسيح من نزوله قبل الساعة ، وذلك تتمة للفائدة .

يقول الشيخ محمد الغزالى فى كتابه مائة سؤال عن الإسلام الجزء[٤] الثانى

وردت أحداث بين يدى الساعة نحب أن نشرح بعضها من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر

---

(١) جزء من الاية رقم /١١٧ من سورة المائدة
(٢) الآية رقم /٤١ من سورة النساء
(٣) القرطبى ج ٦ ص ١٠ وما بعدها
(٤) ص ٧٩ وما بعدها

كريم ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلهًا أو ابن إله وكتابنا يقول فيه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾[١].

ثم يقول : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾[٢] وهذا تلميح إلى نزول عيسى قبيل الساعة بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح ، قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية »

ولماذا ينزل ؟ ليكذب بنفسه من زعموه آلها وهم جماهير غفيرة ، وفى حديث آخر : أنه سينزل بين المسلمين وهم أتباعه الحقيقيون فيقاتل معهم الصليبيين حتى يهزمهم ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ « لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم فيقول له أميرهم : تعالى صلى بنا - يعرض عليه إمامة المسلمين - فيقول عيسى : لا إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات وأن عيسى لن يجىء بجديد »[٣]

قوله تعالى : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا** ﴾ . ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية سببين من الأسباب الكثيرة التى عاقب الله اليهود بها عقاباً دنيويا وأخرويا ، وكفى بالظلم داء وهل أهلك الله الأمم إلا عندما استشرى فيها هذا الداء الوبيل ، وآيات القرآن العظيم خير شاهد على ما ذكرنا ، من ذلك قوله تعالى ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٤] وقوله جل شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٥] وقوله تبارك اسمه ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٦] وقوله عز وجل : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٧] وقوله جل جلاله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٨] وقوله عظمت حكمته : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير ﴾[٩] وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وقال : « من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج عن الإسلام » وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[١٠]وجاء فى الحديث القدسى الجليل عن الله تعالى ، قال : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »

وجاء فى حديث قد سى آخر عن الله تعالى قال : « أشتد غضبى على من ظلم من لم يجد له ناصرا غيرى ، واشتد غضبى على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره »

---

(١) سورة الزخرف الآية /٦١
(٢) سورة الزخلاف الآية /٦٢
(٣) مائة سؤال عن الاسلام ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠
(٤) جزء من الآية رقم ١٣ من سورة يونس
(٥) جزء من الآية رقم ١١٧ من سورة الكهف
(٦) الآية رقم ١١٧ من سورة هود
(٧) جزء من الآية رقم ٥٩ من سورة القصص
(٨) الآية رقم ٤٥ من سورة الحج
(٩) الآية رقم /٤٨ من سورة الحج
(١٠) الآية رقم /١١٣ من سورة هود

فإذا أضيف إلى ظلم اليهود صدهم ومنعهم كثيرا من الناس عن سبيل الله وطريق الهداية ، كان الجرم فظيعا وكانوا جديرين بأن يحرم الله عليهم طيبات كانت قد أحلت لهم ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا عليهم كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ **وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما** ﴾ ، أى بسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على ألسنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوانهم دون الأجانب ، فقد جاء فى سفر الخروج : « إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى لا تضعوا عليه ربا » وفى سفر تثنية الاشتراع **« لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا شيء ما مما يقرض بربا للأجنبي تقرض بربا تقرض بربا » ولكن لأخيك لا تقرض بربا وهذه عبارة التوراة التي كتبت بعد السبي[٢]، وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التي كتبها موسى فقد فقدت باتفاق اليهود والنصارى ، وأنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقاً ، فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود في المزمور الخامس عشر : « فضته يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البريء » وقول سليمان في سفر الأمثال : « المكثر ماله بالربا والمرابحة فلن يرحم الفقراء بجمعه »** .

﴿ **وأكلهم أموال الناس بالباطل** ﴾ أى بالرشوة والخيانة ونحوهما مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾[٣] والسحت : الكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .

وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها يبين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال :

﴿ **وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما** ﴾ أى وأعددنا للذين كفروا منهم برسل الله عذابا مؤلما فى نار جهنم خالدين فيها أبدا .

وبعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يوهم أنه شامل لكل أفرادهم ، جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم ، فقال : ﴿ **لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم ، المستبصرون فيه غير التابعين للظن ، الذين لا يشترون به ثمنا قليلا من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى ، وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسله

(١) الآية رقم ١٤٦ من سورة الأنعام

(٢) عندما حزب البابليون المعبد أسروا جميع شعب اليهود وساقوهم عبيدا إلى بابل

(٣) جزء من الآية رقم ٤٢ من سورة المائدة ، وقد كان الفرنسيون والكتبة فى ساحة المعبد يبيعون النصوص منسوبة إلى الله وماهى من عند الله

بهوى ولا عصبية .

روى ابن إسحق والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت فى عبد الله بن سلام وأسَيد بن سعيه وثعلبةَ بن سَعْيه حين فارقوا يهود وأسلموا .

﴿ **والمقيمين الصلاة** ﴾ أى وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان . إذ إقامتها بإتمام أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس به .

« والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » أى والمؤمنون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة ، فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لا يمنع الزكاة ، إذ هى مما تزكى النفس وتعلى الهمة وتهون على النفس المال قال تعالى : ﴿ إنّ الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين ﴾[١] الآيات

﴿ **أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما** ﴾ أى هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعطيهم أجرا عظيما لايُدرِكُ وَصفَه إلا علام الغيوب .

لا نبوة بلا وحـى

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) ﴾

المفردات : ﴿ **أوحينا** ﴾ : الإيحاء يأتى فى اللغة على معان ، فيها : الإشارة كقوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾[٢] والإلهام ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[٣]. وعلى مايكون غريزة ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ﴾[٤] وعلى الإعلام فى خفاء ﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾[٥] الأسباط جمع سبط وهو ولد

(١) الآيات رقم /١٩، ٢٠، ٢١ من سورة المعارج
(٢) جزء من الآية رقم /١١ من سورة مريم
(٣) جزء من الآية رقم /٧ من سورة القصص
(٤) جزء من الاية رقم /٦٨ من سورة النحل
(٥) جزء من الآية رقم /١١١ من سورة الأنعام

الولد والمراد أبناء يعقوب لصلبه أو أولاد أولاده ... ﴿ زبورا ﴾ : مكتوبا وكل كتاب زبور والمراد به الكتاب المنزل على داود عليه السلام ﴿ المناسبة ﴾ : نعى الله على أهل الكتاب عموماً أنهم يفرقون بين الأنبياء فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ثم نعرض القرآن لليهود خاصة وأنهم سألوا محمداً ﷺ ﴿ عناداً واستكباراً ﴾ : أن ينزل عليهم كتاباً من السماء آية لهم ، ولم يكن هذا العناد جديداً على اليهود ، فقد سألوا موسى قديماً أكبر من هذا ، وفعلوا القبائح وكفروا بعيسى[1] وبهتوا أمه وحاولوا قتله وصلبه الخ ما ذكر .

ولولا هذا لآمنوا بك وصدقوك ، فأنت أوضح دليلاً وأقوم قيلا ، على أن الإيحاء من الله إليك كان كالأنبياء السابقين ، فمالهم يفرقون بين نبى ونبى ؟ وما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟

إنا بما لنا من العظمة والقدرة ، قد أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن إيحاءً كإيحائنا إلى الأنبياء قبلك ، فلست بدعاً من الرسل وهم قد آمنوا بهم ، فكيف يطلبون منك أن تنزل عليهم كتابا من السماء ؟ على أنهم لو آمنو بالرسل حقيقة لآمنوا بك ، فالوحى جنس واحد لم يتغير ، وفى كتبهم البشارة بك ووصفك ، وحقيقة الإيحاء – كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد .

عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة

إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى المشهورين من الأنبياء قبلك ، كنوح ، وخص بالذكر أولاً لأنه أقدم نبى مرسل على أن قومه كذبوه فعذبُّوا ، وهو الأب الثانى للبشر ، وأوحى إلى النبيين من بعده لاسيما إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، والذى يدين له العرب وأهل الكتاب ، وإسماعيل ابنه الأكبر وأبو العرب وجد المصطفى ﷺ ، وإسحاق ابن إبراهيم وأبو يعقوب المسمى بإسرائيل ، وإليه تنسب اليهود والأسباط ، وهم حفدة يعقوب ، وقيل أولاده لصلبه وعددهم عشرة ، وأولاد يوسف اثنان فكان المجموع اثنى عشر سبطاً ، وهم فى نسل إسحاق كالقبائل فى نسل إسماعيل ، وعيسى بن مريم ، وقدم على غيره لأنه محل طعن اليهود ، وأيوب ويونس وهارون وسليمان بن داود ، وخص هؤلاء جميعاً بالذكر مع اندراجهم فى لفظ النبيين لشرفهم وكرامتهم على الله .

وآتينا داود كتاباً زبوراً ، قال القرطبى[2]: كان فيه مائة وخمسون سورة ، ليس فيها حكم من الأحكام ، وإنما هى حكم ومواعظ ، وتمجيد وثناء على الله تعالى ، وأرسلناك كما أرسلنا رسلا غير هؤلاء ، قد قصصناهم عليك من قبل فى سورة الأنعام ، ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾[3] الآيات وأجمع السور لقصصهم سورة هود والشعراء[4].

(١) بهتوا من البهتان وهو التهمة الباطلة وهو ما سبق ذكره فى الآية رقم ١٥٦ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما

(٢) الجامع لاحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى جـ ٦ ص ١٧

(٣) الآيات من رقم /٨٤ إلى ٨٧ من سورة الأنعام

(٤) وكذلك سورة الأعراف ، بينما لخصت أخبارهم سور أخرى كالأنبياء والصافات وص

وهناك أرسلنا رسلا لم نقصصهم عليك لأن أممهم مجهولة غير معروفة ، وليس فى ذكرهم كبير فائدة ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ سورة هود[١] ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾ وخص موسى بهذه الكرامة على سبيل التأكيد ، لأن قومه هم المقصودون بالحديث ، وقد كلم الله موسى تكليماً خاصاً ممتازاً عن غيره ، أما كيف كان ؟ وهل كان مشافهة أم لا ؟ فالله أعلم بذلك كله ، على أن وقوفنا على أسرار الأثير واستخدامه ونقل الحديث بالراديو والتلفزيون ، جعل الإعتراضات القديمة شيئا بسيطا لا يعبأ به فالله الذى أقدر بعض المخلوقات على الوصول إلى هذا قادر جداً على خلق أشياء ليس لها مقياس معروف ولا حد مألوف .

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾[٢] والظاهر أن تكليم موسى عليه السلام كان من النوع الثانى .

الخــلاصة : إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى فلان وفلان من الأنبياء ، وآتيناك كتابا كما آتينا بعضهم كتابا ، وأرسلناك للناس كافة رسولا ، كما أرسلنا لهم رسلا ، فما لهؤلاء القوم يفرقون بين نبى ونبى ، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، أرسلنا أولئك الرسل الذين قصصنا عليك بعضا منهم مبشرين من يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر بالثواب الأبدى جنة خالدين فيها أبداً ، ومنذرين من يكفر بالله ورسله واليوم الآخر بالعقاب الصارم ناراً وقودها الناس والحجارة ، أرسلنا لئلا يكون للناس حجة على الله ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[٣] .

وحجتهم أنهم يقولون لولا أرسلت إلينا رسلا تبين لنا الشريعة ، وتعلمنا ما لم نعلم إذ القوة البشرية مهما تكن تعجز عن إدراك كل جزئيات الخير والشر ، على أن عامة الناس لا يفرقون بين الضار والنافع ، مع احتياج الكل إلى قادة يقودونهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحميد ، ومن الذى كان يأتى بأخبار الغيب من حساب وجزاء وثواب وعقاب ؟ وما أتى به الرسل موافق لسنن الفطرة السليمة ملائم للطبائع الزكية ، ومع ذلك يترتب عليه ثواب عظيم وعقاب أليم .

وكان الله عزيزا لا يغلبه متعنت ولا مكابر ، حكيما فى كل صنع صنعه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٤].

وهؤلاء اليهود قد أنكروا نبوة النبى ﷺ ، ولم يشهدوا برسالته وهى أوضح من الشمس فسألوه كتابا من السماء إنهم لا يشهدون بذلك ، ولكن الله يشهد بالقرآن ، وكفى به شاهداً فالله أنزله عليك بعلمه الخاص ، الذى لايعلمه سواه ، ولقد صدق الله فى وصفه ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾[٥] **تحدَّيت** به الكل فعجزوا ﴿ **قل لئن** اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

---

(١) الآية رقم /١٢٠ من سورة هود
(٢) من الآية رقم /٥١ من سورة الشورى
(٣) الآية رقم /١٣٤ من سورة طه
(٤) جزء من الآية ١٥ من سورة الإسراء
(٥) جزء من الآية الثانية من سورة البقرة

بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[١] وهو القرآن الكامل فى كل شيء ، المشتمل على قوانين وشرائع تكفل لمن يتبعها حياة سعيدة وعزة ورخاء .

فكأن القرآن بهذا يشهد للنبى ﷺ بصدقه ولسان حاله يقول صدق محمد فى كل ما يبلغه عن ربه ، والملائكة ومنهم جبريل يشهدون لك بالرسالة ، فثبتت شهادة الله تعالى بما أنزله عليك من القرآن ، إذ لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، ولو اجتمع الإنس والجن ، ولا يعقل أن يكون من وضعك ، فأنت النبى الأمى العربى الذى نشأ فى بيئه: جاهلية .

﴿ قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾[٢] الأنعام .

جـزاء الكافـرين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

التفسـير

بعد أن دلت الآيات على نبوة محمد ﷺ ، وأنه لاحجة للكفار المعاندين ، وأن الله شهد له بما أنزله عليه بعلمه من القرآن ، أخذ ينذر الكفار ويهددهم بالعذاب الشديد ، وينذرهم سوء العاقبة وبئس المصير ، إن الذين كفروا بالله ورسوله ، وصدوا عن سبيل الله بأعمالهم التى يقلدهم فيها غيرهم ، قد ضلوا وأضلوا ضلالاً بعيداً عن الصواب جداً ، إن الذين كفروا وظلموا أنفسهم وغيرهم ياتباعهم الشيطان ، وبعدهم عن هدى الرحمن ، لم يكن من شأن الله وصفته أن يغفر لهم ، فالله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولم يكن ليهديهم ويوفقهم إلى طريق أبداً إلا طريق جهنم وبئس المصير ، فهم قد ملأوا النفس والقلب من ظلام الكفر والضلال ، حتى لم يعد فيه متسع للنور والهداية ، هؤلاء لهم جهنم خالدين فيها خلوداً أبدياً ، الله أعلم بما يتناسب مع ما قدموا من أعمال وما جبلوا عليه وكان ذلك على الله سهلاً ويسيرا .

يا أيها الناس : قد جاء كم الرسول الكامل والمعهود عند أهل الكتاب ، جاءكم بالقرآن والحق والخير والهدى والفلاح ، فآمنوا يكن الإيمان خيراً لكم ، آمنوا واقصدوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فاعلموا أن الله معذبكم ومجازيكم على كفركم فليس هناك عذر لمعتذر ، وليس وراء الموت إلا الجنة أو النار ، وليس

(١) الآية رقم /٨٨ من سورة الاسراء

(٢) من الآية رقم /١٩ من سورة الأنعام

يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ولا يجهل شيئاً فيهما، وهو الغنى عن عبادتكم وما ذلك كله إلا أن لله مافى السموات ومافى الأرض ملكا وخلقا وعبيداً وتصريفاً وحكماً، سبحانه وتعالى العليم بخلقه الحكيم فى صنعه.

المسيح بن مريم فى نظر القرآن

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

المفردات: ﴿ **لاتغلوا** ﴾: الغلو مجاوزة الحد من جهة التفريط أو الإفراط[1] « وكلمته » المراد أنه حدث بكلمة « كن » التكوينية لا بمادة أخرى كغيره من الناس ﴿ **وروح** ﴾: وجد بنفخ من روح الله وهو جبريل ﴿ **يستكبر** ﴾: الاستكبار أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة غروراً منه وإعجابا بها

المناسبة:

بعد أن حاجَّ الله اليهود وألزمهم كلمة التقوى والطريقة المثلى أردف ذلك بمحاجة النصارى وألزمهم جميعاً الرأى الوسط فى عيسى بن مريم.

التفسير

ياأهل الكتاب لا تكونوا مغالين فى الدين، ومتجاوزين الحدود فيه فلا تكفروا بعيسى وتبهتوا أمه، وتحقروه وتهينوه كما فعلت النصارى، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الثابت بالنقل المتواتر، الذى يستحيل معه الكذب، أو المؤيد بالحجج العقلية الدامغة، أما القول بالحلول واتخاذ الصاحبة والولد، فكذب وبهتان وخرافة وثنية، موسى وعيسى والأنبياء جميعاً براء منها.

إنما المسيح عيسى بن مريم البتول الطاهرة الصِّدِّيقة النقية التى أنبتها الله نباتا حسناً، وكفَّلها زكريا الرجل الصالح، والتى برأها القرآن الكريم، إنما المسيح عيسى رسول الله إلى بنى إسرائيل، أمرهم

(١) التفريط أى التقصير عن الواجب من الحق والافراط أى الزيادة فى الآثام والخطايا

بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وأمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم عن الكفر به والشرك والتثليث ، وزهدهم فى الدنيا ، وحثهم على التقوى ، وبشرهم بخاتم النبين والمرسلين : ﴿ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[١] وإنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وهو مكون بكلمته « كن » التكوينية : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[٢] نعم كل مولود له سبب ظاهر وهو اتصال الجنسين ، وله سبب حقيقى وهو إرادة الله المعبر عنها بكلمة ﴿ كن ﴾ فلما انتفى مع عيسى السبب الأول بالبرهان ، ثبت أن عيسى خلق بالسبب الثانى ، وهو كلمة « كن » ، أوصلها إلى مريم بواسطة جبريل : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾[٣] وهو مؤيد بروح كائنة منه سبحانه وتعالى ، لا بعضا منه كما فهم المسيحيون ، وإلا لكان كل شيء بعضاً من الله بدليل قوله : ﴿ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ﴾[٤] وكونه مؤيداً بروح منه يؤيده قوله : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾[٥] وقيل المعنى أن عيسى خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل ويوضحه قوله تعالى : ﴿ التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾[٦] ، ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾[٧]

وقال بعضهم المعنى أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ورحمة[٨] منه وبقوله قوله تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا ﴾[٩] وما لنا نعجب من خلق عيسى بلا أب ؟ حتى تنكب المسيحيون الطريق ، وانغمسوا فى الشرك والتثليث لهذا !

فهذا آدم خلق بلا أب وأم : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾[١٠] وهذه حواء خلقت من آدم فقط .

وبماذا نرد أصول الحيوانات جميعاً ، وكما يقولون هل البيضة أصل أم الفرخة ؟ أيا كان فمن الذى أوجد الأصل الأول من الفرخة أو البيضة ؟ هو الله بلا تناسل وتزاوج معروف .

ومن الغريب أن بعض النصارى يفهمون قوله تعالى « وروح منه » أن عيسى ابن الله ، أو جزء الإلّه ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والذى أوقع المسيحيين فى هذا هو المتشابه فى التوراة والإنجيل ، وما وصل إليهم عن طريق الوثنيين من اليونان والرومان والمصريين القدماء ، والبراهمة .

فالديانة المسيحية الصحيحة ديانة مبنية على أساس التوحيد الخالص البرىء لله سبحانه : ذاتا وصفة وفعلا ، ولكن الكنيسة أدخلت هذه الوثنيات والعقائد الزائفة فى عقول أبنائها لأمر فى أنفسهم ، ولما رأوا

(١) من الآية رقم /٦ من سورة الصف
(٢) جزء من آيات عديدة فى سور القرآن الكريم /١١٧ من سورة البقرة ، ٤٧ من سورة آل عمران ٣٥ من سورة مريم ٦٨ من سورة غافر
(٣) جزء من الآية رقم ٤٥ من سورة آل عمران
(٤) جزء من الآية رقم /١٣ من سورة الجاثية
(٥) جزء من الآية رقم /٨٧ من سورة البقرة
(٦) جزء من الآية رقم /١٢ من سورة التحريم ، ٩١ من سورة الأنبياء
(٧) جزء من الآية رقم /١٧ من سورة مريم
(٨) ذكره الامام القرطبى فى تفسيره ص ٢٣ من الجزء السادس
(٩) جزء من الآية رقم ٢١ من سورة مريم
(١٠) جزء من الآية رقم /٥٩ من سورة آل عمران

القرآن يعارضهم فى ذلك كذبوه وأنكروه ، وهو الذي برأ مريم من قول اليهود ، ووضع عيسى الموضع اللائق ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾[١] وفى أقوال الأحرار من المسيحية ما يؤيد هذا ، وهى موجودة فى كتاب الشيخ رشيد رضا (تفسير الشيخ محمد عبده) الجزء السادس عند تفسير هذه الآية ، وإذا كان الأمر كذلك : فآمنوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وآمنوا برسله جميعاً لا فرق بين نبى ونبى ، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة « الأب والابن والروح القدس » أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر ، وكل منها إلّه كامل ، ومجموعها إلّه واحد فإن هذا إشراك بالله وترك للتوحيد الذى هو ملة أبيكم إبراهيم ، وهذا كلام ينا فى العقل الراجح والفكر السليم ، إذ كيف يكون واحداً وثلاثة ؟ وكيف يحل الإلّه فى بعض خلقه وكيف يتحد ، وهل طبيعة : الإلّه كطبيعة البشر أظن[٢] لا.. بل طبيعة البشر تتنافى مع طبيعة الملك فهذا لا يأكل ولا يشرب وعيسى وأمه كانا يأكلان ويشربان[٣].

وما ميزة عيسى عن غيره من الأنبياء ؟ أرسل مؤيداً بالمعجزات ، وكانت كغيرها لم تجر على سنن الطبيعة ، بل بقدرة الله وقوته كما نص القرآن الكريم ، وموسى الكليم ومحمد ﷺ كذلك ، فكيف تقولون إن عيسى إلّهٌ ؟ ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ وقولوا قولا يكن خيراً لكم ، وأجدى من هذا العبث والوثنية والعصبية الحمقاء إنما الله إلّه واحد لا إلّه إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ، سبحانه أن يكون له ولد فليس المسيح إبنه ، إذ الولد يقتضى اتصالاً جنسياً بالأم ، وحاجة إليه وإلى أمه حتى يبرز إلى الوجود ، أفيليق هذا ؟ لا ... ياقوم : الله له مافى السموات ومافى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصريفاً ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[٤]

لا فرق فى ذلك بين الملائكة والنبيين والناس أجمعين ، وهل الإلّه فى حاجة للولد ؟ ليقيم اسمه ويحفظ ذكره ويرثه بعد موته ، وهل هو فى حاجة إلى الولد ليعينه ؟ كلا فالله قوى قادر مالك الملكوت حىّ دائم باق بعد فناء خلقه ، صاحب الأمر والتصريف ، وكفى بالله وكيلا .

وهذا عيسى نفسه يقول فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلّه الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » فهذا نص صريح فى أن المسيح رسول الله فقط ، وفى الإنجيل أيضاً « من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الله الذى أرسلنى » لن يتكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة الذين هم أعظم من المسيح خلقا وقوة ، فهم أعلم بذات الله ومكانته . ومن يستنكف عن عبادة الله وحده ويتكبر ويدعى الإشراك أو التثليث فيحشرهم إليه جميعا ، ويجازيهم على كل ذلك فأما

---

(١) الآية رقم /٣٤ من سورة مريم

(٢) الظن هنا بمعنى اليقين الجازم

(٣) وقد جاء ذلك فى الآية رقم /٧٥ من سورة المائدة : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ... » الآيه

(٤) الايات رقم /٩٣،٩٤،٩٥ من سورة مريم

من آمن بالله وحده والعاملون الصالحات ، فيوفيهم أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله ، فهو واسع الفضل كثير الخير .

وأما الذين استنكفوا وتكبروا فهم المعذبون عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة ، ﴿ **لايجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾ ﴿ يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾[١].

الدعـوة العامـة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

المناسبة :

بعد أن حاجّ القرآن النصارى فأفحمهم ، ومن قبل ذلك حاج اليهود فألزمهم ، وناقش المنافقين وكشف سترهم ، وظهرت نبوته ﷺ ظهور الشمس في رابعة النهار ، نادى الناس جميعاً ودعاهم إلى اتباعه .

أيها الناس قد جاءكم برهان واضح ونور ساطع ، يبين لكم حقيقة الإيمان بالله ، وهو من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ذلك البرهان هو محمد ﷺ النبى العربى الأمى ، الذى نشأ فى الجاهلية لم يجلس إلى معلم ولم يؤدبه مؤدب ، ولم يتعلم فى جامعة ولا تخرج فى معهد ، ولم يعد إعداداً لتحمل أكبر رسالة فى الوجود من إنسان !

كان فى شبابه الأمين الصادق ، وعند رجولته الكاملة كان الداعية إلى الله بأقوى أسلوب وأوضح بيان ، وقد كان المثل الأعلى فى عمله وعلمه ورسالته ، وسياسته وقيادته وزعامته ، فحقاً أدبه ربه فأحسن تأديبه ، نعم كان برهانا عن صدق رسالته ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[٢]

وأنزل الله إليكم مع هذا البرهان نوراً مبينا هو القرآن الكريم ، ظهر فى الوجود بعد ما عميت القلوب وغشيت الأبصار من الوثنية المشركة واليهودية الكاذبة والمسيحية الضالة ، ظهر فى الكون فأنار الوجود وأضاء القلوب وأحيا النفوس ، وأوضح الطريق لعبادة الله حق العبادة وكان محكم التنزيل كاملا فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، والعمران والعلوم الكونية والإلهية والسياسية الحربية للأمم

فحقاً هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾[٣] فمن تأمل هذا البرهان القوى ، وذلك النور

---

(١) الآية رقم /١٦ من سورة الانفطار

(٢) من الآية رقم /١٢٤ من سورة الأنعام

(٣) الآيات من /١٩١ إلى ١٩٥ من سورة الشعراء .

السماوي ، ظهر له أن محمداً ﷺ برهان من الله وحجة على أحقية هذا الدين ، وأن كتابه القرآن أنزله الله بعلمه وشهد له بصدقه .

فأما الذين آمنوا به واتبعوا نوره واعتصموا بحبله فسيدخلهم ربهم فى رحمته وفضله فى الدنيا والآخرة ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، فمن يعمل بالقرآن وحكمه كانت له العزة فى الدنيا والكرامة ، وفى الآخرة الجنة والرضوان والسلامة .

حق الأخوة فى الميراث

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

المفردات : ﴿ **هلك** ﴾ : مات .

سبب النزول :

روى أحمد والشيخان[1] عن جابر بن عبد الله قال : « دخل علىّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب على فعقلت ، فقلت : إنه لايرثنى إلا كلالة[2] فكيف الميراث ؟ فنزلت آية المواريث »

وقال الخطابى أنزل الله فى الكلالة آيتين إحداهما فى الشتاء وهى التى فى أول السورة وفيها إجمال ، ثم أنزلت الأخرى فى الصيف وفيها كمال البيان وقيل إنها من آخر الآيات نزولا[3]

يطلبون منك الفتيا أيها الرسول ، فيمن يورث كلالة – كجابر بن عبد الله – الذى ليس له ولد وارث ولا والد ، وله إخوة من أب وأم ، إذ هؤلاء لم يفرض لهم شىء ، إن الذى تقدم أول السورة الأخ لأم ونصيبه السدس فإن زاد فالثلث فقط كنصيب أمه .

والتفصيل إن امرؤ مات وليس له ولد ولا والد ، وله أخت لأب أو شقيقة (لأب وأم) ، فلها

(١) أحمد بن حنبل والشيخام : البخارى ومسلم

(٢) الكلالة من مات ليس له ولد ولا والد هذا رأى جمهور أهل العلم وقال غيرهم هم الورثة غير الأبناء والآباء : باختصار عن الجامع لاحكام القرآن ج ٥ ص ٧٦ ، ٧٧، ٧٨

(٣) ذكره الامام مسلم عقب الحديث السالف ذكره

نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ذكر أو أنثى على الصحيح ، فإن كان من يرث بالأخوَّة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ، وكذا إن كن أكثر من ثنتين - كأخوات جابر - فقد كن تسعاً ، وفى رواية سبعا ، فلهن الثلثان والباقى لمن يوجد من العصبة على ماهو مفصل فى أبواب الميراث وإن كان الأخوة : رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين فى حظهما وهو الثلثان ، يبين الله لكم هذه الأحكام لتعرفوها وتعملوا بها ، فلا تضلوا أبداً ، ﴿**والله بكل شىء عليم**﴾ فعليكم التمسك بهذه الأحكام إذ هى مصدر الخير والبركة لكم .

ســورة المـائدة

جاء فى كتاب بصائر ذوى التمييز[١] ما نصه :

اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع سوى آية واحدة ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فإنها نزلت يوم عرفة فى الموقف ورسول الله ﷺ راكب على ناقته العضباء فسقطت الناقة على ركبتيها من ثقل الوحى وشرف الآية .

وعدد آياتها مائة وعشرون فى عد الكوفى ، واثنتان وعشرون فى عد الحجاز والشام ، وثلاث وعشرون فى عد البصرى .

وكلماتها ألفان وثمان مائة وأربع ، وحروفها أحد عشر ألفاً وتسع مائة وثلاثة وثلاثون حرفاً .

وسميت بسورة المائدة لا شتمالها على قصة نزول المائدة من السماء .

مقاصــد الســورة

الأمر بوفاء العهود وبيان ، ما أحله الله تعالى من البهائم ، وذكر تحريم المحرمات ، وبيات إكمال الدين ، وذكر الصيد ، والجوارح ، وحِلّ طعام أهل الكتاب ، وجواز نكاح المحصنات منهن ، وتفصيل الغسل والطهارة والصلاة ، وحكم الشهادات والبينات ، وخيانة أهل الكتاب القرآن ومن أنزل عليه ، وذكر المنكرات من مقالات النصارى ، وقصة بنى إسرائيل مع العمالقة ، وحبس الله تعالى إياهم فى التيه ، وحديث قتل قابيل أخاه هابيل ، وحكم قطاع الطريق ، وحكم السرقة وحد السرّاق ، وذم أهل الكتاب وبيان نفاقهم وتجسسهم ، وبيان الحكم بينهم ، وبيان القصاص فى الجراحات وغيرها ، والنهى عن موالاة اليهود والنصارى ، والرد على أهل الردة وفضل الجهاد ، وإثبات ولاية الله ورسوله للمؤمنين ، وذم اليهود فى قبائح أقوالهم ، وذم النصارى بفاسد اعتقادهم ، وبيان كمال عداوة الطائفتين للمسلمين ، ومدح أهل الكتاب الذين قدموا من الحبشة ، وحكم اليمين وكفارتها وتحريم الخمر ، وتحريم الصيد على المحرِم ، والنهى عن السؤالات الفاسدة وحكم شهادات أهل الكتاب وفصل الخصومات ، ومجاورة الأمم رسلهم فى القيامة ، وذكر معجزات عيسى ونزول المائدة ، وسؤال الحق تعالى إياه فى القيامة تقريعاً للنصارى وبيان نفع الصدق يوم القيامة للصادقين .

فضل السورة :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ وهو على راحلته فلم تستطع أن تحمله حتى نزل عنها » ويروى بسند ضعيف : « من قرأ هذه السورة أعطى من الأجر بعدد كل يهودى ونصرانى فى دار الدنيا عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات »

(١) هو كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز لمؤلفه مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادى المتوفى سنة ٨١٧هـ

وفى رواية : « من قرأ هذه السورة أعطى بكل يهودى ونصرانى على وجه الأرض ذرات ، بكل ذرة منها حسنة ودرجات كل درجة منها أوسع من المشرق إلى المغرب سبعمائة ألف ألف (ضعيف)

ويروى أنه قال : يا على من قرأ سورة المائدة شفع له عيسى وله من الأجر مثل أجور حواريى عيسى ويكتب له بكل آية قرأها مثل ثواب عُمَّار بيت المقدس .

قال الشيخ المراغى فى تفسيره : هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهى مدنية بناء على المشهور من أن المدنى مانزل بعد الهجرة ولو فى مكة ، وقد روى فى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه : أن قوله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دنيكم** ﴾ الخ نزلت عشية يوم عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه التناسب بينها وبين سورة النساء يتبين فيما يلى :

١ – أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمناً ، فالصريح : عقود الأنكحة والصداق والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى : عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة

٢ – أن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشىء مما قبلها .

٣ – أن معظم سورة المائدة فى محاجة اليهود والنصارى ، مع ذكر شىء عن المنافقين والمشركين ، وقد تكرر ذكر ذلك فى سورة النساء وأطيل فيه فى آخرها

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة : أن الأولى بدئت بيأيها الناس وفيها الخطاب بذلك فى مواضع وهذا بالتنزيل المكى ، والثانية بيأيها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المدنى المتأخر عن الأول .

روى عن النبى ﷺ أنه قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال : « يأيها الناس إن سورة المائدة آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

المفردات : ﴿ **أوفوا** ﴾ : الوفاء الإتيان بالشيء وافيا كاملاً لا نقص فيه ﴿ **بالعقود** ﴾ : بالعهود المؤكدة الموثقة ، وهى تشمل عقود الشرع فيما أحل وحرم وفرض ، وعقود الناس بعضهم مع بعض فى البيع والشراء والمناكحة وغير ذلك ﴿ **بهيمة** ﴾ : وهى مالا عقل لها سميت بذلك لإبهام أمرها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تميزها وعقلها ، وخصها العرف بذوات الأربع مع حيوان البر والبحر ﴿ **الأنعام** ﴾ : هى الإبل والبقر الشامل للدواب والجواميس والضأن الشامل للخراف والمعز ، وألحق بها الظباء وبقر الوحش وحمره ﴿ **شعائر** ﴾ : جمع شعيرة ، مأخوذ من الشعور والإعلام ، والمراد معالم دينه وخصت بمناسك الحج ﴿ **الهدى** ﴾ : ما يهدى إلى الحرم ويذبح فيه للفقراء ﴿ **القلائد** ﴾ : جمع قلادة وهو ما يعلق فى العنق ﴿ **آمّين** ﴾ : قاصدين ﴿ **شنآن** ﴾ : بغضهم بغضاً شديداً ﴿ **لايجرمنكم** ﴾ : لايحملنكم ولا يكسبنكم ﴿ **البر** ﴾ : ما اطمأن إليه القلب ﴿ **الإثم** ﴾ : كل ذنب ومعصية وهو ماحاك فى الصدر وخِفْت أن يطلع عليه الغير .

التفسـير

هذا خطاب كريم من رب كريم جاء بعنوان الإيمان ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ والله جلَّت قدرته وعظمت حكمته ، يخاطب المؤمنين لأنهم أسرع الناس امتثالا لتنفيذ أمره واجتناب نهيه

أتى رجل عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إلىَّ ، فقال : « إذا سمعت الله يقول ﴿ **ياأيها الذين آمنوا** ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه » وعن الزهرى قال : « إذا قال الله ﴿ **ياأيها الذين آمنوا** ﴾ افعلوا فالنبى ﷺ منهم »

ولصدر هذه السورة الكريمة من القيم والمعانى والتوجيهات والإرشادات الإلهية ، ماجعلنا نقف موقف المعتبر ، عندما نعلم أن هذه الآيات كانت نص خطاب بعث به النبى ﷺ عمرو بن حزم إلى أهل اليمن ، قال ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن حزم عن أبيه قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذى كتبه لعمر وبن حزم ، حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ويأخذ صدقاتهم ، فكتب له كتابا وعهدا ، وأمره فيه بأمره ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من الله ورسوله ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمر وبن حزم ، وقد أمره فيه بتقوى الله فى أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

المراد بالعقود : العهود ، فالوفاء بالعهد سمة بارزة من سمات الإسلام وقيمة راسخة من قيمه الأخلاقية ومثله العليا ، قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد

جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[2] ومن صفات المؤمن أنه إذا قال صدق ، وإذا عاهد أوفى ، وإذا وعد أنجز

ومن خصال المنافق أنه إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، ومن كانت فيه من هذه الخصال كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، ومن كانت فيه تلك الخصال كان منافقا خالصا ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون .

وقال الضحاك (أوفوا بالعقود) أى ما أحلَّ الله وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقرَّ بالإيمان بالنبى والكتاب : أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الغرائض من الحلال

وقال زيد بن أسلم (أوفوا بالعقود) قال : هى ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المراد بالعقود عهود الله التى عهد بها إلى عباده : أى ما أحلَّ وما حرم وما فرض وما حُدّ فى القرآن كله ، لاغَدْر فيها ولا نكث .

وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب : عقد بين الله وبين العبد ، وعقد بينه وبين غيره من البشر ، وكل واحد منها إما أن يوجبه العقل الذى أودعه الله فى الإنسان ويتوصل إليه ببديهة العقل ، أو بأدنى نظر ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ﴾[3] وإما أن يوجبه الشرع ، وهو مادلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به من قول أو فعل ، كما أمر الله ، مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما ، كالعقد على أكل شىء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر (القمار) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التى أمر بالإيفاء بها ، وبدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم فقال : (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، والمراد بالأنعام : الضأن والمعز والإبل والبقر ، وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتا فى بطن أمه إذا ذبحت : عن أبى سعيد : قال « قلنا يارسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة فى بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أمه » قال الترمذى حديث حسن وقد ألحق ببهيمة الأنعام الظباء وبقر الوحش ، والإضافة فى قوله تعالى ﴿ **بهيمة الأنعام** ﴾ إضافة تفيد البيان أى بهيمة هى الأنعام ، كما فى قوله تعالى ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾[4] أى آية هى الليل ، وآية هى النهار .

(١) جزء من الآية رقم /٩١ من سورة النحل
(٢) جزء من الآية رقم /٣٤ من سورة الاسراء
(٣) جزء من الآية رقم /١٧٣ من سورة الأعراف
(٤) جزء من الآية رقم /١٢ من سورة الاسراء

قوله تعالى : ﴿ **إلا مايتلى عليكم** ﴾ أى ما سيأتى بيانه فى قوله جلَّ ذكره : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب** ﴾ فهذه المذكورات من الأنعام ماعدا الخنزير وإنما حَرُمَتْ لعارض طرأ عليها كالموت بدون تذكية .

قوله تعالى : « غير محلى الصيد وأنتم حرم » غير هنا منصوب على الحال : أى حالة كونكم غير محلّى الصيد وأنتم حرم ، كالظباء وبقر الوحش وحمار الوحش ، وذلك كما فى قوله جلَّ ذكره ﴿ حرم عليكم صيد البر مادمتم حرما ﴾[١] فالله تعالى إذا كان قد أباح صيد الظباء وبقر الوحش وغيرهما من الحيوانات التى لايمكن الوصول إليها إلا بالصيد ، فإنه تعالى حرَّم على المحرمين أن يصطادوا مادامو حرما ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ المقصود بالحكم هنا القضاء ، فهو سبحانه الذى يقضى بحرمة هذا وحل ذاك كما يشاء سبحانه ، ومشيئته منزهة عن العبث ، لأنه الحكيم المريد العليم جلَّت حكمته ووسعت رحمته وعظمت رأفته ، وليس لغيره أن يحكم على الأشياء بالحل والحرمة لهوى فى نفسه ، ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون ﴾[٣] . وقال الله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله** ﴾ : المقصود بشعائر الله هنا مناسك الحج والعمره وقيل سائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم . ومعنى لاتحلوها : أى لاتخالفوا أحكام الله فيها ، والمقصود بالشهر الحرام : الأشهر الأربعة : وهى ثلاثة سرد[٥] وواحد فرد وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان .

وقد حرَّم الله القتال فى هذه الأشهر إلا إذا اعتُدى على المسلمين فيها : قال تعالى : ﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾[٦] . وقال جلَّ ذكره : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ﴾[٧] . وقال تبارك اسمه : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾[٨]

والمقصود بالهدى : ما يهُدى من الأنعام إلى البيت الحرام للتوسعة على أهل هذا المكان ، فلا تمنعوه

(١) جزء من الآية رقم /٩٦ من سورة المائدة
(٢) جزء من الآية رقم /٩٥ من سورة المائدة
(٣) الايتان رقم /٥٩، ٦٠ من سورة يونس
(٤) الآيتان رقم /١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل
(٥) سرد أى متتالية
(٦) جزء من الآية رقم /٢١٧ من سورة البقرة
(٧) جزء من الآية رقم /١٩٤ من سورة البقرة
(٨) جزء من الآية رقم /٣٦ من سورة التوبة

من بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصبا وذبحه أو سرقته أو حبسه عند من أخذه ، والمقصود بالقلائد : ماعلق فيه قلادة تميزه عن غيره وتفيد أن هذا مُهدى إلى بيت الله الحرام ، فلا تمنعوا الهدى مقلداً أو غير مقلد .

قوله تعالى : ﴿ **ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً** ﴾ نزل هذا النص فى الحطم بن هند البكرى[١]: كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت ، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا فى طريقه إلى البيت ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿ **ولاآمين البيت الحرام** ﴾ ، والمقصود بالآمين القاصدين البيت فى الحج أو العمرة ، وقد يُراد بالفضل التجارة كما فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾[٢] والمقصود بالرضوان ما يترضون به الله تعالى بأداء الحج والعمرة والإهداء إلى الحرام .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ أى إذا فرغتم من الإحرام وتحللتم فقد أبيح لكم ما كان محرما من الصيد فاصطادوا إن شئتم .

قوله تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا** ﴾ أى لايحملنكم شدة بغضكم لقوم سبق أن صدوكم عن المسجد الحرام - كما حدث يوم الحديبية - لايحملنكم ذلك على الاعتداء عليهم ، فالإسلام دين العدل لايتصيد الأخطاء ، ولا يظلم من أجل البغض والشنآن ، وليس للهوى فى حكمة نصيب :

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ البر جماع الخير وشعبه كثيرة متعددة ، جاء بيانها فى قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقواوأولئك هم المتقون ﴾[٤]

وقد جاء فى الحديث الشريف « البر حسن الخلق ، والإثم ماحاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن .

---

(١) اسمه فى الجامع لأحكام القرآن « شريح بن ضُبَيْعة البكرى أو الكندى ، وفيه أن جند رسول الله ﷺ أخذوه عام عُمرة القطنيه وقد جاء مقتمرا ، وقد قتل الحطم مرتدا فى ردة اليمامة ، وكان الهدى الذى ساقه للكعبة مما سبق أن سرقه من سرح المسلمين حول المدنية

(٢) جزء من الآية رقم /١٩٨ من سورة البقرة

(٣) هى الآية رقم /٩ من سورة المائدة وسوف يأتى تفسيرها إن شاء الله

(٤) جزء من الآية رقم /١٧٧ من سورة البقرة

وروى أحمد والدارمى عن وابصة بن معبد الجهنى أنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت نعم . وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبى ﷺ بما فى نفسه وأجابه فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ماحاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ومن باب التعاون على البر والتقوى قوله ﷺ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قيل يارسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره » انفرد به البخارى .

وقوله ﷺ : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لايخالطهم ولا يصبر على أذاهم » رواه الترمذى وابن ماجة .

وقوله ﷺ «الدال على الخير كفاعله » رواه أحمد .

وقوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لاينقص ذلك من آثامهم شيئا » رواه البخارى – وقال أيضا ﷺ : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام » . رواه الطبرانى – قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ أى احذروا عقوبته وخافوه ، فالتقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، وهو سبحانه شديد العقاب على من خالفه ، واسع الرحمة والمغفرة لمن أطاعه والتزم شرعه .

أحكام تتعلق بالمحرمات

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

التفســير

جاءت هذه الآية الكريمة مفصّلة لما أجمل فى قوله تعالى: ﴿ **إلا مايتلى عليكم** ﴾ الذى جاء استثناءً من قوله جلّ شأنه : ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام** ﴾ وقد بين الله تعالى فى تلك الآية أحكام التحريم فى

عشرة أشياء نبين معناها فيما يلى :

﴿ **الميتة** ﴾ : وهى ما ماتت وحدها بدون فعل فاعل ، وفى الشرع هى التى لم تُذَكَّ ذكاة شرعية ، وقد حرمت لما فيها من الضرر إذ الغالب أنها ماتت من مرض ، وبقى فيها ميكروبه وجراثيمه التى تعيش فى الدم بعد الوفاة ، أما إذا ذكيت فإن الدم الذى يحمل الجراثيم أو أغلبها ينزل منها ، على أنها[١] مما تعافها النفوس الطيبة وتأنف من أكلها الطباع السليمة .

﴿ **الدم** ﴾ : والمراد به الدم المسفوح - لا المتجمد كالكبد والطحال - إذ هو مباءة للجراثيم الفتاكة ، على أنه مستقذر عند الطبع السليم ، ومما يعسر هضمه ، وهو من فضلات الجسم الضارة كالبراز ، فدل ذلك على أنه لايحل أكله أبدا .

﴿ **ولحم الخنزير** ﴾ : وهو ثالثة الأثافى ، والمراد لحمه وعظمه ودهنه ، إذ هو حيوان قذر لا يأكل إلا القاذورات والمواد العفنة ، وقد أثبت الطب الحديث أن أكله يولد الدودة الشريطية والدودة الوحيدة والحلزونية ، على أنه عسير الهضم ، ضار بالمعدة ضرراً بالغاً ، ولولا مايستعين به بعض الغربيين من الأدوية ما أكلوه ، على أن أكثر الدول حرمت ذبحه ، وهل تقبل النفوس الطيبة على أكل حيوان كهذا ؟

والإسلام حينما حرم الكلب والخنزير لم يكن متعديا ولا متجنيا ، بل لما فيهما من الضرر والخطورة ، وإنما ينظر الشرع للجماهير والشعب ، لا لبعض أفراد يُعْنَوْن بكلابهم مثلا ، فلا يطعموهم الإشهى اللحم !!

﴿ **ما أهل لغير الله به** ﴾ : والإهلال رفع الصوت ، وقد كانوا يرفعون صوتهم عند الذبح فى الجاهلية بقولهم : باسم اللات والعزى الخ ، فماذبح وقد ذكر عليه اسم غير الله كان حراما أكله ، إذ أكله مشاركة لأهله فى عبادة غير الله ، وهذا مما يجب إنكاره لا المشاركة فيه .

﴿ **المنخنقة** ﴾ : هى ما ماتت خنقا بأى شكل كان ، وهى نوع من الميتة التى لم تذك ذكاة شرعية ، وإنما خصها القرآن بالذكر مع اندراجها فى الميتة لئلا يظن أنها ماماتت حتف أنفسها بل بفعل فاعل فتحل ، ولكن الشرع شرط الذكاة ليتأكد الإنسان مما يأكل ويثق من صحة مايتغذى به .

﴿ **الموقوذة** ﴾ هى التى ماتت بعصاً أو بحجر بلا ذكاة شرعية ، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية ، والوقذ يحرم فى الإسلام لأنه تعذيب للحيوان شديد ، وليست معه ذكاة ومن هنا حرمت ،

ويدخل فى الموقوذة مارمى بعصا أو حجر ليس له حد ، وما رمى بالبندق (وهو كرة من الطين تجفف ويرمى بها بعد يبسها)[٢] وكذا الحصاة ، فإن هذا كله لايفقأ عينا ولاينكى عدوا ولا يحرز صيدا وليس سببا للقتل غالبا ، أما الرصاص المستعمل الآن فى سلاح الصيد فجائز شرعا على الصحيح[٣].

(١) أى الميتة

(٢) يرمى بهذه الكور أو الحصى الصلب بمقلاع أو نبل ، فإن أدرك الطير أو الحيوان وفيه رمق فذكى أى ذبح وهو على حياة حل أكله

(٣) وسبب الجواز أنه يسيل الدم فصار فى معنى الذكاة

﴿ **المتردية** ﴾ : هى ماسقطت من مكان عال كجبل أو هوت فى بئر فماتت بسبب ذلك وهى كالميتة لايحل أكلها بدون تذكية ، ويجوز عقرها فى أى مكان(١) للضرورة فتحل .

﴿ **النطيحة** ﴾ : وهى مانطحتها بهيمة أخرى فماتت وهى حرام كالميتة .

﴿ **ما أكل السبع** ﴾ : وهى ما قتلت بافتراس حيوان كالسبع والذئب والنمر مثلا والمراد مابقى منها بعد السبع لا ما أكلت كلها ، وكانوا فى الجاهلية يأكلون مابقى من السباع والوحوش .

﴿ **إلا ما ذكيتم** ﴾ : أى إلا ما أدركتموه حيا مما سبق فذكيتموه : من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وما أكل السبع جزءا منه ، وما أهل لغير الله به ، فإذا كانت فيه حياة ولو بسيطة بأن يطرف عينا أو يضرب برجل أو يد ثم ذكيتموه ذكاة شرعية صار حلالا ، وإلا فلا أما الميتة والدم ولحم الخنزير فلا تحل أصلا ذكيت أم لا .

﴿ **ما ذبح على النصب** ﴾ : وهو آخر المحرمات العشر والنصُب حجارة حول الكعبة قيل كان عددها ثلاثمائة وستين حجرا وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها تقربا للأصنام ، وهو نوع مما ذكر عليه اسم غير الله تعالى فحرم أكله لهذا - وقد أضاف القرآن الكريم إلى محرمات الطعام التى كان الجاهليون يستحلونها خرافة أخرى كانوا يعملونها وهى :

﴿ **الاستقسام بالأزلام** ﴾ : **أى معرفة ماقسم له بواسطة الأزلام ، وكانت ثلاثة أنواع فى الجاهلية :**
﴿ **نوع** ﴾ : كان مع الشخص وعدده ثلاثة مكتوب على واحد افعل والثانى لا تفعل والثالث غفل ..
﴿ **النوع الثانى** ﴾ : سبعة قداح واحدها قِدْح وكانت عند هبل فى جوف الكعبة مكتوب عليها ما يدور بين الناس من النوازل .

﴿ **النوع الثالث** ﴾ : هو قداح الميسر وعددها عشرة : سبعة منها فيها حظوظ وثلاثة غفل(٢).. إلى آخر ماهو معروف .

أى وحرم عليكم معرفة ماقُسِم لكم بالأزلام ، والحكمة فى هذا أنه من الخرافات والأوهام التى تعوق نشاط الفرد والأمة ، ومدعاة للكسل والسير على غير بصيرة وهدى ، على أنها تجعل الناس ألعوبة فى يد الكهان(٣)، والإسلام برىء من هذا كله ..

وفى هذه الأيام شاعت معرفة الحظ والاستقسام بأوراق « الكوتشينة » و(الودع) و(الفنجان) وهذا كله منكر شرعا لايليق بعقل المسلم .

على أن معرفة الحظ والنصيب بواسطة المسبحة أو المصحف شىء لايعرفه الشرع والقرآن

(١) وذلك إذا ادركت وفيها رمق من حياة
(٢) أى فارغة ليس فيها شىء
(٣) وهم الذين كانوا يوكل إليهم الاستقسام بالأزلام وكانت لهم حيل حتى يحصلوا على أعظم أجر

والاستخارة الواردة شرعا أن يصلى الإنسان ركعتين نفلا للاستخارة ، ثم يدعو الله بدعاء بشرح به صدره لما يريده إن كان خيرا له فى دينه ودنياه ، وللنبى ﷺ دعاء فى الاستخارة يقول فيه : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسالك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاَّم الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسمى حاجته) خير لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره لى ثم رضنى به ، وإن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان » .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ أى أن المذكورات التى حرَّمها الله تعالى فسق وخروج عن طاعة الله ، لمن خالف أمر الله فيها .

وقد ذكر الله تعالى فى ختام هذه الآية أربع بشريات : أولاها : ﴿ **اليوم بئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون** ﴾ ، وثانيتها ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وثالثتها ﴿ **وأتممت عليكم نعمتى** ﴾ ورابعتها : ﴿ رضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1] قال ﷺ « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم » وإذا كان الله تعالى قد أكمل دينه فليس دين الله فى حاجة إلى زيادة أبدا ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لاتنقضى أبدا ، وإذا كان قد رضى لنا الإسلام دينا فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا .

قوله تعالى : ﴿ **فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾ هذا استثناء مما سبق ذكره من المحرمات فللضرورة أحكامها ، إذ أن الضرورات تبيح المحظورات ، فمن أصابته مخمصة وجوع يكاد يعصف به ولم يكن مائلا إلى اثم أو معصية ، فقد أبيح له أن يأكل بقدر ما يرد جوعته ويروى غلته ولا إثم عليه لأنه اندرج تحت مظلة المغفرة الإلهية والرحمة الربانية ، فما أكرمك من إله وما أعظمك من رب رحيم أرأف بعباده من الأم بولدها .

قال ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته » لفظ ابن حبان ، وفى لفظ لأحمد « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة »

---

(١) روى الائمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرأونها لو علينا انزلت معشر يهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال : وأى آية ؟ قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فقال عمر : إنى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه ، والمكان الذى انزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة فى يوم جمعة - لفظ مسلم ، وعند النسائى ليلة جمعة .

وروى أنها لما نزلت فى يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله ﷺ : بكى عمر ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك » أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص ، فقال له النبى ﷺ : « صدقت » وروى مجاهد أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة والأول هو الأصح ، وقد نزلت والنبى ﷺ واقف بعرفة بعد صلاة العصر على ناقة العضباء ، فكاد عضد الناقه ينقدُّ - ينكسر - من ثقل الوحى فبركت

ماذا أحل لهم

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

المفردات : ﴿ **الطيب** ﴾ : ضد الخبيث . ﴿ **والجوارح** ﴾ : واحدها جارحة ، وهى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور ، من الجرح بمعنى الكسب قال تعالى ﴿ ويعلم ماجرحتم بالنهار ﴾[١] أى ما كسبتم ، و﴿ **مكلبين** ﴾ : من التكليب وهو تعليم الكلاب وإضراؤها بالصيد ، ثم استعمل فى تعليم الجوارح مطلقا . ﴿ **المحصنات** ﴾ : هنا الحرائر وقيل العفيفات عن الزنا . ﴿ **والأجور** ﴾ : المهور ، والمراد بالمحصنين الأعفَّاء عن الزنا . ﴿ **مسافحين** ﴾ : مجاهرين بالزنا . ﴿ **متخذى أخدان** ﴾ : مُسرِّين به ، والخِدْن : الصديق يقع على الذكر والأنثى[٢] . ﴿ **حبط عمله** ﴾ : بطل ثواب عمله .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه ابن أبى حاتم بإسناده إلى عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين : أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا : يارسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ، فنزلت ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات** ﴾ أى الذبائح الحلال الطيبة لهم .

وقال تعالى ﴿ **ممّا علمتم من الجوارح مكلبين** ﴾ أى كما أحلَّ الله تعالى الطيبات وهى كلمة جامعة يندرج تحتها كل ما تستطيبه النفوس النظيفة ، فإنه سبحانه أحلَّ لنا ما تصطاده الجوارح من الكلاب والفهود وغير ذلك مما نسلطه على الحيوان فيصطاده ، وللصيد فى الشريعة الغراء أحكام نجملها فيما يلى :

تعريف الصيد :

الصيد هو اقتناص الحيوان المتوحش بالطبع الذى لايقدر عليه حكمه : وهو مباح أباحه الله سبحانه بقوله ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾[٣] والصيد مباح كله ماعدا صيد الحرم . وصيد البحر جائز فى

(١) جزء من الآية رقم /٦٠ من سورة الأنعام

(٢) أى يطلق على الذكر والانثى

(٣) جزء من الآية الثالثة التى سبق شرحها من هذه السورة

كل حال ، وكذلك صيد البر إلا فى حالة الإحرام يقول الله تعالى : ﴿ أحلَّ لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرِّم عليكم صيد البر مادمتم حرما ﴾[١].

الصيد الحرام :

والصيد المباح هو الصيد الذى يقصد به التذكية ، فإن لم يقصد به التذكية ، فإنه يكون حراما لأنه من باب الإفساد وإتلاف الحيوان لغير منفعة .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الحيوان إلالمأكلة : روى النسائى وابن حبان أن النبى ﷺ قال : « لاتتخذوا شيئا فيه الروح غرضا »[٢]. ومر صلوات الله وسلامه عليه على طائر قد اتخذه بعض الناس هدفا يصوبون إليه ضرباتهم فقال : « لعن الله من فعل هذا »

شروط الصائد :

ويشترط فى الصائد الذى يحل أكل صيده ما يشترط فى الذابح بأن يكون مسلما أو كتابيا فصيد اليهودى والنصرانى كذبيحته يؤكل .

الصيد بالسلاح الجارح وبالحيوان :

والصيد قد يكون بالسلاح الجارح كالرماح والسيوف والسهام ونحوها ، وفى هذا يقول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾[٣] وقد يكون بواسطة الحيوان ، وفيه يقول الله سبحانه : ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وماعلمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾ .

وعن أبى ثعلبة الخشنى قال : قلت يارسول الله إنا بأرض صيد . أصيد بقوسى وبكلبى المعلم وبكلبى الذى ليس بمعلم فما يصلح لى ؟ فقال : « ماصدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل ، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل » ورواه البخارى ومسلم .

شروط الصيد بالجوارح :

والصيد بالجوارح مثل الصقر والبازى والفهد والكلب وغيرها مما يقبل التعليم جائز بالشروط الآتية :

١ – تعليم الحيوانات الصيد ، ويعرف ذلك بأن يأتمر إذا أُمر ، وينزجر إذا زجر .

---

(١) جزء من الآية رقم /٩٦ من هذه السورة « المائدة »

(٢) أى هدفا توجهون إليه وسائل الصيد دون طلب الاستفادة منه

(٣) هى صدر الآية رقم /٩٤ من هذه السورة – المائدة .

٢ - أن يمسك على صاحبه بترك الأكل من الصيد ، فإن أكل فقد أمسك على نفسه فلا يحل صيده ، ففي حديث عدى بن حاتم قال الرسول ﷺ له : إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك ، وإن أكل الكلب فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون مما أمسك على نفسه .

٣ - أن يرسله ويذكر اسم الله عليه : بالنسبة للتسمية قال مالك : كل ماذبح ولم يذكر عليه اسم الله فهو حرام ، سواء ترك ذلك الذكر عمدا أو نسيانا وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين ، وقال أبو حنيفة : إن ترك الذّكر عمدا حرِّم ، وإن ترك نسياناحل .

وقال الشافعى : يحل متروك التسمية سواء كان عمدا أم خطأ إذا كان الذابح أهلا للذبح : عن عائشة أن قوما قالوا : يارسول الله إن قوما يأتوننا باللحم لاندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : سموا عليه أنتم وكلوا ، قالت « وكانوا حديثى عهد بالكفر » أخرجه البخارى وغيره .

أما قصد إرسال الحيوان فإنه شرط من شروط لصيد فإذا انبعث الحيوان الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال ولا إغراء من الصائد فلا يجوز صيدهع ، ولا يحل أكله عند مالك والشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى ، لأنه صاد لنفسه من غير إرسال وأمسك عليها ، ولاصنع للصائد فيه ، فلا ينسب إليه ، لأنه لا يصدق عليه الحديث المتقدم : « إذا أرسلت كلابك المعلمة .. الخ » فمفهوم الشرط أن غير المرسل لايكون كذلك وقال عطاء والأوزاعى يؤكل صيده إذا كان أخرج للصيد وكان معلما .

قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾ أى أطيعوا أمره واجتنبوا نهيه فإنه تعالى محاسبكم على أفعالكم فى الدنيا والآخرة ، واعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات** ﴾ : أى على سبيل التفصيل فقد كانت حلالا من قبل على سبيل الإجمال . ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم** ﴾ المقصود بالطعام هنا الذبائح : فللمسلم أن يأكل من ذبيحة اليهودى أو النصّرانى ، وكما أباح الله تعالى للمؤمن أن يتزوج بالحرائر من المؤمنات فقد أباح له أن يتزوج بالحرائر من أهل الكتاب ، وأن يؤتيهن مهورهن مبتغيا بذلك الإحصان والعفة ، دون سفاح أو مخادنة : قال تعالى : ﴿**والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان** ﴾ فمن جحد هذه الأحكام الإيمانية فقد حبط عمله وضاع تعبه وضلّ سعيه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيات الله يظلمون ، قال تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

أحكام تتعلق بالصلاة والطهارة

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟

بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

المفردات : ﴿ **وجوهكم** ﴾ : جمع وجه وهو ما به تقع المواجهة وحده طولا ما بين منبت شعر الرأس إلى منتهى اللحين ، وعرضا ما بين الأذنين . ﴿ **المرافق** ﴾ : جمع مرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد . ﴿ **الكعبين** ﴾ : العظمان الناتئان عند اتصال الساق بالقدم من الجانبين ﴿ **جنبا** ﴾ : أى أصابتكم جنابة بمجامعة النساء وإنزال المنى .

التفسير

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى عهوده الخاصة بالحلال والحرام فى الطعام والنكاح أخذ يبين ما يقتضيه هذا من الشكر لله والصلاة ، ومفتاحها الوضوء والغسل والتيمم ، وختم الآية ببيان الحكمة فى الطهارة وتذكيرنا بالعهود والمواثيق التى التزمتاها

روى عن النبى ﷺ : « مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور » .

فرائض الوضوء :

إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، فالمرافق تغسل من باب مالايتم الواجب إلا به فهو واجب ، وامسحوا برءوسكم » امسحوا ولو شعرة واحدة عند الشافعى رضى الله عنه ، وربع الرأس عند الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وعلى كل الرأس عند مالك للاحتياط ، وقد فعل النبى ﷺ هذا كله ، والآية تحتمل كل هذا إذا لهاء فى قوله تعالى قد تكون للإلصاق أو للتبعيض أو زائدة صلة ، ولا تنس أن خلافهم رحمة . ﴿ **وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما داخلان كالمرفقين

ومن فرائض الوضوء النية عند الشافعى واستدل بقوله تعالى : ﴿ **إذا قمتم** ﴾ وبحديث « إنما الأعمال بالنيات » والترتيب كذلك لقوله ﷺ : « ابدءوا بما بدأ الله به » وتوسط مسح الرأس بين غسل اليدين والرجلين يدل على الترتيب ، وعلى ذلك فتكون فروض الوضوء : النية ، وغسل الوجه ، وغسل اليدين ، ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين والترتيب ، وله سنن كثيرة نذكرها فيما يلى :

سنن الوضـوء

١ - التسمية فى أوله :

ورد فى التسمية للوضوء أحاديث ضعيفة ، لكن مجموعها يزيدها قوة تدل على أن لها أصلا ، وهى بعد ذلك أمر حسن فى نفسه ، ومشروع فى الجملة .

٢ - السـواك :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » . رواه مالك والشافعى والبيهقى وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » رواه أحمد والشافعى والنسائى والترمذى ، ويسنُّ لمن لا أسنان له أن يستاك بإصبعه ، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : يارسول الله الرجل يذهب فوه أيستاك ؟ قال : نعم - قلت : كيف يصنع ؟ قال : « يدخل إصبعه فى فيه » رواه الطبرانى .

٣ - غسل الكفين ثلاثا فى أول الوضوء :

لحديث أوس ابن أوس الثقفى رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ فاستوكف ثلاثا (أى غسل كفيه) رواه أحمد والنسائى ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده فى إناء حتى يغسلها ثلاثا ، فإنه لايدرى أين باتت يده » رواه الجماعة .

٤ - المضمضة ثلاثا :

لحديث لقيط بن صبره رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا توضأت فمضمض » رواه داود البيهقى .

٥ - الاستنشاق والاستنثار ثلاثا :

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا توضأ أحدكم فليجعل فى أنفه ماء ثم ليستنثر » رواه الشيخان وأبو داود .

٦ - تخليل اللحية :

لحديث عثمان رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يخلّل لحيته » رواه ابن ماجه والترمذى وصححه ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا توضّأ أخذ كفا من ماء فأدخله تحت حنكه فخلَّل به ، وقال : « هكذا أمرنى ربى عزّ وجلَّ » رواه أبو داود والبيهقى

٧ - تخليل الأصابع :

لحديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إذا توضأت فخلل أصابع يديك

ورجليك » رواه أحمد والترمذى ، وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يخلل أصابع رجليه بخنصره » رواه الخمسة إلا أحمد .

٨ - تثليث الغسل :

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثا ثلاثا ، وقال : « هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » رواه أحمد ومسلم والترمذى .

٩ - والتيامن :

أى البدء بغسل اليمين قبل غسل اليسار من اليدين والرجلين ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يحب التيامن فى تنعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله » متفق عليه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا لبستم وإذا توضأتم فابدءوا بأيمانكم » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

١٠ - الدلك :

وهو إمرار اليد على العضو مع الماء أو بعده ، عن عبد الله بن زيد رضى الله عنه : أن النبى ﷺ أتى بثلث مُدّ[1] فتوضأ فجعل يدلك ذراعيه » رواه ابن خزيمة وعنه رضى الله عنه : أن النبى ﷺ توضأ فجعل يقول هكذا يدلك » رواه أبو داود .

١١ - الموالاة :

أى تتابع غسل الأعضاء بعضها إثر بعض بألا يقطع المتوضئ وضوءه بعمل أجنبى يعدُّ فى العرف انصرافا عنه وعلى هذا مضت السنة .

١٢ - مسح الأذنين :

عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ مسح فى وضوئه رأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما وأدخل أصبعيه فى صماخى أذنيه » رواه أبو داود .

١٣ - إطالة الغرة والتحجيل :

أما إطالة التحجيل فبأن يغسل ما فوق المرفقين والكعبين ، لحديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » قال أبو هريرة : فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل . رواه أحمد الشيخان .

---

(١) المد مكيال كانوا يكيلون به كاللتر والصاع خمسة أمداد أى خمس لترات

١٤ - الاقتصاد فى الماء وإن كان الاغتراف من البحر :

لحديث أنس رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد ، ويتوضأ فقال : « ما هذا السرف يا سعد » ؟ فقال : وهل فى الماء من سرف ؟ قال : « نعم وإن كنت على نهر جار » رواه أحمد وابن ماجه .

١٥ - الدعاء أثناءه :

فى حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ بوضوء فتوضأ ، فسمعته يدعو يقول : « اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسّع لى فى دارى وبارك لى فى رزق » فقلت : يانبى الله سمعتك تدعو بكذا وكذا قال : « وهل تركن من شيء ؟ » رواه النسائى .

١٦ - الدعاء بعده :

لحديث عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » رواه مسلم .

١٧ - صلاة ركعتين بعده :

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لبلال : « يا بلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام ، إنى سمعت دَقَّ نعليك بين يدى فى الجنة ، قال : ماعملت عملا أرجى عندى من أنى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ماكُتِبَ لى أن أصلى » متفق عليه .

نواقض الوضوء :

ما خرج من السبيلين ، النوم على غير هيئة المتمكن ، وتلاقى بشرتى ذكر وأنثى ، وعند الأحناف اللمس لاينقض مطلقا ، وقيل بالشهوة ينقض فقط ، ومسّ فرج الآدمى بباطن الكف ، وخالف بعضهم فى هذا ، وليست نواقض الوضوء فى الآية ولكن تعميماً للفائدة ذكرت .

الغســـل :

هو تعميم البدن بالماء الطاهر وله أسباب منها الجنابة وتكون بإيلاج الحشفة أو قدرها من الذكر فى فرج ، أو بنزول المنى ، وكذا الولادة وكذا الحيض والنفاس[1]، فمن كان جنبا أو عنده سبب من أسباب الغسل المتقدمة وأراد الصلاة فعليه بالغسل مع النية « وإن كنتم جنبا فاطهروا » .

التـيمم :

هو ضربتان للوجه واليدين بنية من تراب طاهر له غبار وقيل لا يشترط وله أسباب منها تعذر

(١) ولا صلاة على الحائض والنفساء حتى يرتفع الدم وعندئذ تغتسل لاستباحة فريضة الصلاة

استعمال الماء لمرض أو سفر أو أحدث الشخص حدثا أصغر أو حدثا أكبر (كما تقدم فى الغسل) أو طلب الماء فلم يجده أو جاء أحد منكم من الغائط ﴿ **أولا مستم النساء** ﴾ (جامعتم) فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا .

حكمة مشروعية الوضوء والغسل :

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

١ - إن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطاً وهمة ، ويزيل ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء ، بسبب الحدث أو بغيره من الأعمال التى تؤثر تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى .

إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقاع أو الإنزال حصل تهيج عصبى كبير ، يعقبه فتور - بحسب سنة رد الفعل - ولا يعيد نشاطه إلا غسل البدن كله .

٢ - إن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأقذار مجلبة الأمراض والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون فى أيام الأوبئة والأمراض المعدية فى المبالغة فى النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصحّ الناس أجساداً وأقلهم أمراضا ، لأن دينهم مبنى على المبالغة فى نظافة الأبدان والثياب والأمكنة ، فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفى الأسباب التى تولد جراثيم الأمراض عند الناس .

٣ - تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديرا بحضور كل مجتمع ، ولقاء أشراف الناس وفضلائهم ، ومن كان وسخاً قدراً فإنه يكون محتقراً عند كرام الناس ، ولا يعدونه أهلا لأن يحضر مجالسهم ويشعر فى نفسه بالضعة والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل والطيب ، ولبس الثياب النظيفة يوم الجمعة ، لأنه يوم يجتمع فيه الناس فى المساجد لعبادة الله تعالى : روى مالك والشافعى وأحمد والبخارى ومسلم من طرق عدة : أن النبى ﷺ قال : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكر رفع الحرج الذى تم به الإنعام ذكرنا بنعمة التى أنعم بها علينا فقال :

﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ أى وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين ، فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابين ، وتذكروا العهد الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ،

والعسر واليسر ، حين قلتم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيتنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك فى معروف ، وكل ماجئتنا به فهو معروف ، وكل نبى بعث فى قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة ، وقبول الدعوة والدخول فى الدين ، يعد قبولاً لهذا العهد فعلينا أن نعد هذا التذكير خطابا لنا كما عده

السلف من الصحابة خطابا لهم .

﴿ **واتقوا الله** ﴾ فلا تنقضوا عهده وتخالفوا ما أمركم به وما نهاكم عنه ، سواء أكان فى هذه الآيات أم فى غيرها .

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق ، من نية الوفاء به أو عدم الوفاء وما تنطوي عليه السرائر من الإخلاص أو الرياء .

وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يكون بعباده رحيماً لا **يكلفهم** بهابنية عنتهم أو ما يشق عليهم ، ومن مظاهر تلك الرحمة أنه تعالى لما بين وجوب الطهارتين ، وكان المسلم لابد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك فى اليوم ، ولابد له من الغسل فى كل أسبوع أو أكثر غالباً ، بيِّن الرخصة فى تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يُسْر لاحرج فيه ولا عنت ، فقال : ﴿ **وإن كنتم مرضى** ﴾ أى وإن كنتم مرضى مرضاً جلديا كالجدرى والجرب وغيرهما كالقروح والجروح ، أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر .

﴿ أو على سفر ﴾ طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ : الغائط المكان المنخفض من الأرض ويراد به شرعاً قضاء الحاجة من بول وغائط ، أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها ، كالطواف ، ويسمى : الحدث الأصغر

﴿ **أو لامستم النساء** ﴾ المراد بالملامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء والحدث الموجب للغسل يسمى : الحدث الأكبر .

﴿ **فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ﴾ أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث : المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين ، فاقصدوا ترابا أو مكانا من وجه الأرض طاهراً لا نجاسة فاضربوا بأيديكم عليه وألصقوها بوجوهكم **وأيديكم إلى الرسغين ، بحيث يصيبها أثر منه .**

﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾ أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم فى هذه الآية ، وفى غيرها ، حرجاً ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة ، لأنه تعالى غنى عنكم رحيم بكم ، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم ﴿ **ولكن يريد ليطهركم به** ﴾ من الأقذار والرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة ، فتكونوا أنظف الناس أبدانا وأزكاهم نفوساً وأصحهم أجساداً وأرقاهم أرواحاً .

﴿ **وليتم نعمته عليكم** ﴾ فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ، والإنسان إنما هو روح وجسد ، والصلاة تطهر الروح وتزكى النفس فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتعود المصلى مراقبة ربه فى السر والعلن وخشيته حين الإساءة ، والرجاء فيه لدى الإحسان والطهارة التى جعلها الله شرطاً

للدخول فى الصلاة ومقدمة لها تطهيراً للبدن وتنشيطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجل نعم الله على عبادة وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾[1] أى وليعدكم بذلك لدوام شكركم على تلك النعم الظاهرة والباطنة .

العدالة فى الإسلام والتذكير بنعم الله

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

المفردات : ﴿ **قوامين** ﴾ : جمع قوّام ، وهو المبالغ فى القيام بالشىء والإتيان به مقوماً تاماً كاملاً ﴿ **بالقسط** ﴾ : بالعدل . ﴿ **يجرمنكم** ﴾ : يحملنكم ويكسبنكم ﴿ **خبير** ﴾ الخبرة العلم الدقيق الذى يؤيده الاختبار ﴿ **يبسطوا إليكم أيديهم** ﴾ يقال بسط إليه لسانه إذا شتمه وبسط إليه يده إذا بطش به .

التفسير

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ، ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم ، وتحريم ما يضرهم من الطعام إلا فى حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم : ذكر هنا ما ينبغى أن يكون من معاملتهم سواهم ، سواء أكانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ، ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة ، إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردهم صاغرين ، ليكون الشكر أتم والوفاء ألزم .

---

(١) من الغوائد التى يحسن بكل مسلم أن يعلمها أن محراب المسجد الجامع فى قرطبة الأندلس - الفردوس المفقود - أن منشىء المحراب الذى اقيم سنة ٣٥٤ هـ على عهد الحكم الستنصر الأموى وبأمره : كتبوا آية الوضوء فى داخل تجويف المحراب ، وكتبوا فى قمته قوله تعالى من سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم سلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .. الخ الآيات

وما تزال هذه الآيات باقة إلى اليوم فى هذا المحراب الجليل رغم زوال حكم المسلمين منذ أكثر ن خمسة قرون وسبحان من له الدوام وقد كان هذا المسجد يسع عشرين ألف مصل

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ﴾ : أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ماتعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق ، بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

﴿ شهداء بالقسط ﴾ الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو إظهاره بقوله بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه ، لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة .

فالعدل هو ميزان الحقوق : إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المفاسد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغابرها ولكن الناس لا يعتبرون .

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ﴾ : أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم ، بالشهادة لهم بحقهم ، إذا كانوا أصحاب حق ، أو الحكم لهم بذلك ، فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة ، ويجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما

﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ هذه الجملة توكيد للجملة السالفة للعناية بأمر العدل ، وأنه فريضة لا هداوة فيها ، لأنه أقرب لتقوى الله ، والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاسد التى تقوض نظم المجتمعات ، وتقطع الروابط بين الأفراد ، وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم ، وتقوى الله فى جميع أحوالهم .

ثم بين سبحانه : ما وعدهم به بعد ، أن ذكره أولا محملاً لتتوجه النفس للسؤال عنه ، حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد ، فقال :

﴿ هم مغفرة وأجر عظيم ﴾ المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة ، فيغلب عليها حب الحق والخير ، وتكون أهلا للوصول إلى عالم القدس والطهر ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح ، فضلاً من الله ورحمة من لدنه

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ ﴿ الكفر ﴾ : هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق فى ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض ، ﴿ وآيات الله قسمان ﴾ : آياته المنزلة على رسله ، وآياته التى أقامها فى الأنفس والآفاق ، كالدلالة على وحدانيته وكماله وقدرته وإرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، ﴿ الجحيم ﴾ : النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾[1] .

أى أن هؤلاء الكفار المكذبين سيصلون العذاب فى نار عظيمة أعدها الله لمن كفر وكذب بآياته ، لأن نفوسهم قد فسدت وسوء أعمالهم قد ران على قلوبهم ، فأصبحوا حتما عميا لا يبصرون ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم** ﴾ .

روى من طرق عدة أن الآية نزلت فى رجل من قبيلة محارب هم بقتل النبى ﷺ : أرسله قومه لذلك ، وكان بيده سيف وليس مع النبى ﷺ سلاح ، وكان منفرداً روى الحاكم من حديث جابر قال : « قال على رأس رسول الله ﷺ وقال : من يمنعك منى ؟ قال : « الله » فوقع السيف من يده ، فأخذه النبى ﷺ ، وقال : « من يمنعك » ؟ قال : كن خير آخذ ، قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال جئتكم من عند خير الناس » وفى رواية أخرى : « إن السيف الذى كان بيد الأعرابى كان سيف النبى ﷺ علقه فى شجرة نام تحتها وقت الراحة ، فأخذه الرجل ، وجعل يهزه ، ويهم بقتل النبى ﷺ ، ثم سقط من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال من يمنعك منى ؟ قال لا أحد ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم وأبى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد : تذكيرهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ﷺ فإنه لو حصل ذلك لكان من المحن الكبرى التى تصيب المسلمين ، وقيل إن المراد تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الاسلام ، وعظمة شوكة المسلمين ، فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم ، بدل الله الحال غير الحال ، وأصبحوا أعـزة بعد الذلة ، وغالبين بعد أن كانوا مقهورين ، فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الأعتداء كلها سواء فى ذلك حادثة المحاربى وأمثالها ، لأن حفظه لأولئك السلف ، هو حفظه لذلك الدين القويم ، فالنبى ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وأصحابه هم الذين تلقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولا وعملا ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه فى التأسى بالسلف فى القيام بما جاء من الدين من الحق والعدل والبر ومعنى قوله : « إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » أى شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء ، من قتل ونهب ، فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به .

﴿ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى واتقوا الله الذى أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده ، فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه ، بعد مراعاة سننه والسير عليها فى اتقاء كل ما يخشى ضرُّهُ وتسوء عاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد

(١) الآية رقم ٩٧ من سورة الصافات .

تنقطع بهم الأسباب ويجيبون داعى اليأس إذ اشتد البأس ، والخلفاء قد يغدرون كما غدر بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو الذى يجير ولا يجار عليه ، فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه ، كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين ، أيام ضعفهم وقلتهم وفقرهم وتألب الناس كلهم عليهم .

الميثاق وكيف نقضوه

* وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿ **نقيبا** ﴾ : نقيب القوم كبيرهم الذى يعنى بهم وبمصالحهم ويعرف دخائلهم وهو الضامن لهم . ﴿ **عزرتموهم** ﴾ : نصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء . ﴿ **لعناهم** ﴾ : طردناهم من رحمتنا . ﴿ **قاسية** ﴾ : شديدة مغلقة لا تقبل خيراً . ﴿ **خائنة** ﴾ : أى خيانة أو نفس خائنة . ﴿ **فأغرينا** ﴾ : الزمناهم وألصقنا بهم .

بعد أن أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعهود ، وذكرنا بموجب هذا الوفاء من إحلال الحلال وتحريم الحرام ، وتبصيرنا بالاستعداد للصلاة ، ثم ذكرنا بنعمة والمواثيق التى أخذها علينا ، أخذ يعرض لنا حال أهل الكتاب وقد نقضوا الميثاق ، وكيف كان جزاؤهم فى الدنيا والآخرة ، لعل المسلمين يتعظون بمن سبقهم من الأمم .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل من فرعون وصحبه ، أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم : إنى جعلتها لكم وطنا فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإنى ناصركم وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا ، يكون كفيلا بتنفيذ ما أمروا به ، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل له النقباء ، وسار بهم فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار ، فرأوا أجساما قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا ، وحدثوا قومهم بما رأوا ، وقد

كان موسى أمرهم ألا يخبروا أحداً بما يرون فنقضوا العهد . إلا نقيبين منهم . وهما اللذان قال فيهم القرآن : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهماادخلوا عليهم الباب ﴾[١] ولقد أخذ الله العهود والمواثيق على بنى إسرائيل بواسطة نبيهم موسى عليه السلام ليعملن بالتوراة وليقبلنها بجد ونشاط ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾[٢] ولازال هذا العهد موجوداً فى التوراة وأمرناه أن يختار اثنى عشر نقيبا منهميتولون أمور الأسبـاط ويقومون على رعايتهم ، وبعثناهم يتجسسون العدو ليقاتلوه ، وقال الله على لسان موسى : إنى معكم وناصركم على عدوكم ، ومطلع عليكم ومجازيكم على أعمالكم ، ثم أعطاهم العهد الموثق : ﴿ **لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة** ﴾ وأديتموها كاملة تامة الأركان مستوفية الشروط وأنفقتم بعض المال الذى به تزكو نفوسكم وتطهر ، ﴿ **وآمنتم برسلى** ﴾ التى سترسل لكم بعد موسى عليه السلام ، كداود وسليمان ويحيى وزكريا ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ونصرتموهم ومنعتوهم من الأعداء ، ووقفتم إلى جانبهم فى السراء والضراء وأقرضتم الله قرضا حسنا طيبة به نفوسكم ، مع أنكم تقرضون غنياً له خزائن السموات والأرض قادراً كريما يضاعف الحسنة إلى عشرة أمثالها بل إلى سبعمائة تالله إنكم إن فعلتم هذا :

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل ونصرتهم والقرض الحسن) لأكفرن عنكم سيئاتكم فإن الحسنات يذهبن السيئات وأنتم بذلك تستحقون الرضوان ودخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ومن يكفر بعد ذلك منكم وينقض الميثاق فقد ضل السبيل الواضح وأخطأ الطريق المستقيم الذى رسمه الله لعباده الأبرار .

وهؤلاء اليهود – كما وصفهم القرآن غير مرة – دأبهم العناد وديدنهم الكفر والعصيان ، وجزاؤهم الطرد والحرمان فبنقضهم الميثاق ، وكفرهم بالله ورسله ، وعدم نصرتهم لهم وعدم تعظيمهم وتوقيرهم ، استحقوا المقت والغضب واللعن والطرد من رحمة الله ، وكان نقضهم الميثاق مفسدا لفطرتهم مدنساً لنفوسهم ، فإن الذنب الذى يرتكبه الإنسان يترك نكتة سوداء فى القلب ، فإذا كثرت المعاصى اسود القلب وأصبح فى أكنة لا يصل إليه النور والهدى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ وكذلك رأيناهم يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويفترون على مريم البتول وابنها عيسى عليه السلام الذى أرسل لهم ليهديهم سواء السبيل ، بل حاولوا قتله وافتخروا بذلك ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾[٥] فبسبب هذا بعدوا عن رحمة الله وطردوا منها شر طردة ، وأصبحت قلوبهم قاسية كالحجارة أو أشد قسوة ، وصاروا يحرفون الكلم عن مواضعه فيقدمون ويؤخرون ويحذفون منه ويغيرون معناه ويبدلون ﴿ ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ﴾[٦] . وقد نسوا حظاً من التوراة كبيرا .

وذلك أن موسى عليه السلام توفى والتوراة التى كتبها وأمر بحفظها – وكانت نسخة واحدة – قد فقدت باتفاق المؤرخين من اليهود والنصارى عند سبى البابلين لهم ، وإغارتهم عليهم ولم يكن عندهم

---

(١) جزء من الآية ٢٣ من هذه السورة – المائدة .

(٢) جزء من الآيتين رقم ٦٣ ، ٩٣ من سورة البقرة .

(٣) فى أكنة « محجوب عن مصادر الهداية » وذلك قد حكاه الله إذ قال : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » الآية رقم ٢٥ من سورة الأنعام ، ٤٦ من سورة الاسراء .

(٤) جزء من الآية رقم ٧ من سورة البقرة .

(٥) جزء من الآية ١٥٧ من سورة النساء .

(٦) جزء من الآية رقم ٤٦ من سورة النساء .

غيرها ، وما كانوا حفظوها[1] كلها ، نعم هناك أسفار خمسة تنسب إلى موسى عليه السلام ، فيها أخبار عن موته وحياته ، وأنه لم يقم أحد بعده مثله ، كتبت بعد موته بزمن طويل قيل كتبها عزرا الكاهن معتمداً على ما بقى عند شيوخهم الذين بقوا بعد الأسر والقتل .

أفلا تراهم نسوا حظاً منها كبيرا ، وكما يقول القرآن فى موضع آخر ﴿ أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾[2] ومن العلماء من يرى أن معنى الآية أنهم تركوا أحطاماً كثيرة من التوراة والله أعلم بكتابه .

ألا ترى هذا من أعظم المعجزات على صدق الرسول محمد ﷺ : حيث أخبرهم بدخائل نفوسهم ، وأما أنت يا محمد فلا تأس عليهم ، ولا تعجب من عنادهم ، فهاهم قديما قد فعلوا كل شىء ، ولا تزال تطلع فيهم على خيانة بعد خيانة تصدر منهم على سبيل المبالغة ، إلا قليلاً منهم ممن آمن وحسن إيمانه وإذا كان الأمر كذلك فاعف عنهم واصفح إذا تابوا أو بذلوا الجزية إن الله يحب المحسنين .

ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب من النصارى ، فنسوا حظاً عظيماً مما ذكروا به ، ولذلك كان جزاؤهم أن الله ألزمهم العداوة والبغضاء ، حتى صارت صفة لازمة لهم لاصقة بهم إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعونه ، والمنصف للتاريخ يعرف أن المسيح توفى ولم يكن هناك إنجيل مكتوب ، وقد اضطهد اليهود أتباعه وتلاميذه وشردوهم حتى قتلوا أكثرهم ، فلما هدأت الأحوال ودخل قسطنطين الملك الديانة المسيحية أخذوا يكتبون الأناجيل ولذلك كانت كثيرة ومختلفة متباينة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون فى الدنيا ويجازيهم عليه حتما .

من قبائح اهل الكتاب

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

يا أهل الكتاب قد جاءكم محمد ﷺ مؤيداً بمعجزة القرآن المعجزة الباقية الخالدة ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، هذا النبى قد بين لكم كثيرا من الأحكام والآيات التى كنتم تخفونها عن العوام ، فقد روى : أن هذه الآية نزلت حينما كتمواحكم الزانى المحصن ، وأقسم النبى ﷺ على حبرهم[3] ابن صوريا وناشده حتى اعترف به وقد أنكروا غير ذلك من بشارة التوراة والإنجيل بالنبى ﷺ ووصفه ، فبينه القرآن لهم ، ولقد كان بيان القرآن لما كتموه سببا فى إسلام كثير من أحبارهم وعلمائهم . يبين الله بواسطة رسوله كثيراً مما تخفون ، ويعفو عن كثير مما لا تمس الحاجة إليه ، ولا تفيد الدعوة فى شىء ، وهم يعلمون أنهم يخفون غير الذى أبداه الرسول .

(١) المراد حفظ آياتها عن ظهر قلب .
(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة آل عمران .
(٣) الحبر أحد علماء بنى اسرائيل .

﴿ **يا أهل الكتاب** ﴾ ﴿ **قد جاءكم من الله نور** ﴾ هو النبى محمد ﷺ أو هو القرآن ، أو هو دينه ، وجاءكم كذلك كتاب مبين بين الحقيقة ، وأظهر المكنون ، يهدى به الله من اتبع رضوانه طرق الخير التى تنجيه من العذاب الأليم ، ويخرج من اتبعه من ظلمات الشرك والخبث والخرافة والأوهام الباطلة ، إلى نور الإسلام وهدى القرآن الذى أنزله بعلمه ومشيئته وتوفيقه ، ويهدى من اتبعه صراطا مستقيماً يوصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

كفر النصارى ومناقشتهم

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ **يملك** ﴾ : يدفع ويمنعه وأصله الضبط والحفظ التام . ﴿ **يهلك** ﴾ : يميت ويعدم . ﴿ **فترة** ﴾ : سكون وهدوء من الرسل والمراد انقطاع الوحى وعدم ظهور الرسل مدة من الزمن .

قال أهل الحق من علماء العقيدة والتفسير :

بعد أن أقام الله سبحانه الحجة على أهل الكتاب عامة ، بين ما كفر به النصارى خاصة . قوله تعالى ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ قال أهل الحق . المسيحيون فى هذا فرق ثلاث : الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت (أى إصلاح النصرانية) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون ، وصار هو المذهب السائد فى أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا ، وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التى كانت قبله ، واستبدل بها تقاليد أخرى ، ومع كل هذا فهؤلاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح – الذى هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء – فلا يزالون يقولون بالتثليث ، ويعدون الموحد غير مسيحى ، كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى فى هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم وإن المسيح ابن مريم هو

الله ، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة ، إذ كان بعضهم يفسر الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة ، والقول بها لا ينافى توحيد الخالق ، كما أنه يوجد الآن فى نصارى أوربا وغيرهم موحدون يعتقدون أن المسيح نبى ورسول وليس إلها .

قال الدكتور يوسف البروتستانتى فى تاريخ الكتاب المقدس : « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر ، الله الآب ، والله الابن والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء وإلى الروح المقدس التطهير ، غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء » والعمدة عندهم فى هذه العقيدة عبارة جاءت فى إنجيل يوحنا وهى : « فى البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة » وقد فسروا الكلمة بالمسيح ، فيصير معنى الفقرة الثالثة فى إنجيل يوحنا : « والله هو المسيح بن مريم » وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم ، ولاشك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنيى الشرق والغرب ﴿ **قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا** ﴾ . أى قل أيها النبى الكريم لهؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه ، بل عن سائر الخلق جميعاً إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم .

وخلاصة هذا أن المسيح وأمه من المخلوقات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض ، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعاً لا يستطيع أحد أن يرد إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك ، كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شىء ؟

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة ؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما ، أى وما بين العالمين العلوى والسفلى بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تتردد فى صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ أى أن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله ، هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالا عجيبة لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة ، كأصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ، ولا على ألوهية لبعضها ، ولا حلول الإله الخالق فيها فسنة الله فى خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلها وربا ، لأن هذه المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ، ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ وبقدرته يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له ، كما فى عيسى عليه السلام .

والخلاصة : إن كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبى يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

روى ابن اسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى رسول الله ﷺ ابن أبى[1] وبحرى بن عمرو وشماس بن عدى من اليهود ، فكلمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ؟؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كما قالت النصارى ذلك فأنزل الله فيهم : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ إلى آخر الآية . وقد جاء إطلاق هذا اللفظ « أبناء الله » فى الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين ، كما حكاه متى فى وعظ المسيح على الجبل ، من قوله ﴿ **طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون** ﴾ وكقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية ﴿ **لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله** ﴾ ومن هذا يعلم أن « ابن الله » يستعمل فى كتبهم بمعنى حبيب الله ، الذى يعامله معاملة الآب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصارى تحكموا فى هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبالمعنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لنبيه : ﴿ **قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا كما ترون ؟ من تخريب الوثنيين[2] لمسجدكم الأكبر ولبلدكم المرة بعد المرة ، ومن إزالة ملككم من الأرض ، والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه ، فلستم إذاً أبناء الله ولا أحباؤه ، بل أنتم بشر من جملة ما خلق ، والله سبحانه لا يحابى أحداً ، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم ، فكل هذا لا يجزيكم فتيلا ولا قطميرا ، وإنما الذى ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال ، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير** ﴾ أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق فى كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله ، وجميع المخلوقات عبيد له لا أبناء ولا بنات: ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[3] وفى ختمها بقوله ﴿ **وإليه المصير** ﴾ إشارة إلى أنه سيعذبهم فى الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة ، وأنهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد آبقون يجازون ، لا أبناء ولا أحباء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم أو إن كان أصح منهم إيمانا وأصح أعمالا ، ولا ينبغى أن يتبعوا محمداً ﷺ ، لأنه عربى لا إسرائيلى ، الفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء .

(١) فى ابن اسحق والقرطبى : نعمان بن أحنا وبحرى بن عمر وشماس بن عدى .

(٢) أى الغز والبابلى وهدم الهيكل . (٣) الآية رقم ٩٣ من سورة مريم .

والنصارى قد زادوا عليهم غروراً ، فهم مد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح والمسيح ابنه الحقيقى ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب .

وقد جاهد النبى ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً ، ولم يجد ذلك فيهم شيئاً ، فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به ، من أن العمل مرضاة الله ، وبه تنال تزكية النفس وإصلاحها ، كما جاهد صلف النصارى وكبرهم[1] وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وظلماً وعدوانا ، بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم ليسوا فى حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة — أن هذه الآيات تبين لنا سنة الله فى البشر وأن الجزاء إنما يكون على أعمال لا على الأسماء والألقاب ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل** ﴾ أى قد جاءكم رسولنا الذى بشر تم به فى كتبكم ، وأخبركم به أنبياؤكم فقد جاء على لسان موسى : ﴿ أنه سيقيم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم ﴾ وعلى لسان عيسى : « أنه سيجىء البارقليط روح الحق الذى يعلمكم كل شىء » وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا اكهنة ولاويين « أحباراً » فسألوا يوحنا عليه السلام : أأنت المسيح ؟ قال : لا ، أأنت إيلياً ؟ قال : لا ، أأنت النبى ؟ قال : لا، هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبى الأمى يبين لكم على فترة من الرسل ، أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحى — جميع ما أنتم فى حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدتها عليكم نزعات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم أفراطكم فى الأمور المادية ، والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل فى ذلك ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب ، لإقامة الحجة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئاً مما جاد به .

وقد أرسل صلوات الله عليه وسلامه وقد فشا التغيير والتحريف فى الشرائع المتقدمة — لتقادم عهدها وطول زمانها — فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وصار ذلك عذراً ظاهراً فى إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا : يا إلهنا عرفنا أنه لابد من عبادتك ، ولكن كيف نعبدك ؟ فبعث الله محمداً ﷺ فى ذلك الحين لإزالة هذا القدر الذى بينه سبحانه بقوله ﴿ **أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير** ﴾ أى : إننا إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين ، وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين .

ثم بين أنه أزال هذا العذر فقال : ﴿ **فقد جاءكم بشير ونذير** ﴾ يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها متوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يحابى أحدا . ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ ومن دلائل قدرته نصر نبيه ﷺ وإعلاء كلمته فى الدنيا ، وفى ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى

---

(١) المصلف التعالى والتكبر .

الأحلام ، إلى مايكون له من المنزلة فى الدار الآخرة روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، قال : دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود : اتقوا الله ، فوالله لتعلمن أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته فقال رافع بن حر يخله ووهب بن يهودا : إنا ما قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل الله بشيرا ولا نذيرا » فأنزل الله الآية .

بنو إسرائيل والأرض المقدسة

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ **ملوكا** ﴾ : أحراراً عندكم ما يكفيكم . ﴿ **المقدسة** ﴾ : الطاهرة ومن الأوثان وعبادتها . ﴿ **ولا ترتدوا على أدباركم** ﴾ : لا ترجعوا عما أمرتم به . ﴿ **جبارين** ﴾ : جمع جبار وهو الطويل القوى المتكبر العاتى مأخوذ من قولهم نخلة طويلة لا ينال ثمرها . ﴿ **يتيهون** ﴾ : التيه الحيرة ومنه صحراء تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التى يهتدى بها .

وهذا حديث بين نبى الله موسى وبنى إسرائيل يذكرهم فيه بآلاء الله ونعمه التى أنعم بها عليهم ، فقد جعل فيهم أنبياء كثيرين وجعل فيهم ملوكاً أحراراً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من عالم زمانهم ، وبعد أن ذكرهم بهذه النعم العظمى والآلاء الكبرى ، أمرهم أن يستعدوا للجهاد ، ويفتحوا الأرض المقدسة ، والمقصود بها على الأرجح أرض فلسطين ، وقد أخبرهم بأن الله قد كتب لهم هذه الأرض إن هم دخلوها ، ونهاهم موسى عن الارتداد والنكوص ، حتى لا يقعوا فى الخسران المبين ، ولكن حقيقة اليهود لا تتخلف ولا تتغير فالجبن والخور والاستكانة ، والحرص على الحياة من أصول طباعهم ، قالوا : ﴿ **يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ .

إذاً فأى فضل لهم إذا دخلوها بغير جهاد . وهنا يعمل الإيمان عمله فى رجلين منهم ، فيقولان بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ ولكن صوت الباطل يصرخ ويصيح فى عرصات الدنيا ، وبكل وقاحة قالوا لموسى : ﴿ **إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ فتأمل معى كيف جعلوا من الله رباً لموسى وحده ﴿ **اذهب أنت وربك** ﴾ أو ليس الله رب العالمين ، أو ليسوا من العالمين ؟ ثم انظر كيف وصل التبجح بهم حداً بعيد المدى فقالوا لنبى الله ﴿ **إنا هاهنا قاعدون** ﴾ .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ عندما قالوا له يوم بدر وكانوا كما وصفهم رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **اللهم فإنهم جياع فأطعمهم ، اللهم فإنهم حفاة فاحملهم ، اللهم فإنهم عراة فاكسهم** ﴾ .

هؤلاء الجياع العراة الحفاة وقفوا أمام قوم غلاظ الأكباد جفاة الطباع قساة القلوب ، فماذا قال هؤلاء الجياع العراة الحفاة ، لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، قالوا : ﴿ يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك ، وعلمنا أن ما جئت به هو الحق ، والله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، لا يتخلف منا رجل واحد ، فامض على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك ، وإنا لصدق فى الوعد صبر عند اللقاء ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، يا رسول الله سالم من شئت وعاد من شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، ودع لنا ما شئت ، والذى بعثك بالحق إن الذى تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تدعه لنا ﴾[1] .

فتأمل معى منطق أصحاب رسول الله الذى باشرت بشاشة الإيمان شغاف قلوبهم فجعلت من المتسحيل ممكنا ، ثم تأمل موقف بنى إسرائيل الذين تربعت الدنيا على قلوبهم ، فجعلتها فى غطاء عن ذكر الله ، فكانوا لا يستطيعون سمعاً ، وفى نهاية المطاف ، قال موسى : ﴿ **رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ فجاء الحكم جازماً من أسرع الحاسبين وأعدل العادلين ، قال : ﴿ **فإنها محرمة عليهم** ﴾ ثم حكم عليهم بالتيه أربعين عاماً جزاء وفاقاً ، فقد حيروا الأنبياء وقتلوهم واعتدوا على حرمات الله ، وإن قبائحهم لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ المارقين المتمردين جاء فى كتاب الظلال[2] فى تفسير هذا المشهد ما نصه : ﴿ **إنا لنلمح فى كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب ، فلقد جربهم من قبل فى مواطن كثيرة ، فى خط سير الرحلة الطويلة ، جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر ، وحررهم من الذل والهوان باسم الله وبسلطان الله الذى فرق لهم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فيقولون : « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » وما يكاد يغيب**

---

(١) يراجع فى هذا النص : ابن اسحاق ، وسيرة ابن هشام ، والطبقات الكبرى وتاريخ الطبرى ، وابن خلدون وابن الأثير وغيرها من كتب السير والتاريخ والمغازى عند الحديث عن غزوة بدر .

(٢) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٢ ص ٦٩٤ إلى ٦٩٨ .

عنهم فى ميقاته مع ربه ، حتى يتخذ السامرى من الحلى التى سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهبا له خوار ، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إلٰه موسى الذى ذهب لميقاته ، وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع فى جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى[1] طعاماً سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا عليه من أطعمة مصر - أرض الذل بالنسبة لهم - فيطلبون بقلها وقثاءهاوفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعم وحياة ، فى سبيل العزة والخلاص والهدف الأسمى الذى يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون ، وجربهم فى قصة البقرة التى أمروا بذبحها فتلكأوا أو تسكعوا فى الطاعة والتنفيذ ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ ، وجربهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده ، فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد من ربهم ، بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ، ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم « وظنوا أنه واقع بهم » لقد جربهم فى مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل ، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة : أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا ، الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا فى رعاية الله وقيادته ، لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة فيحشد فيها ألمع الذكريات وأكبر البشريات وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات .

﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ نعمة الله ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً وإيتائه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين، حتى ذلك التاريخ والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله ، فهى إذن يقين ، وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده ، وهذا وعده الذى هم عليه قادمون ، والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين ولكن إسرائيل هى إسرائيل الجبن والتمحل والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق **﴿ قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾** إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها مكشوفة بلا حجاب ، ولو رفيق من التجمل ، ذلك انهم أمام الخطر ، فلا بقية اذن من تجمل ، ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمجل ، إن الخطر ماثل قريب ، ومن ثم لا يعصمهم فته حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وان الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصراً رخيصاً لا ثمن له ولا جهر فيه ، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى **﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾** . ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود وهى فارغة القلوب من الإيمان .

﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف مراللهفهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ، ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر

(١) المن ندوة عليه كانوا يجدونها كل صباح على الصخور ، والسلوى طائر كطائر السمان يقع فى أيديهم بلا جهد حتى يذبحوه ويأكلوه .

الموهوم ، وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ، وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس ، فالله سبحانه لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين : مخافته – جل جلاله – ومخافة الناس ، والذى يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ، ولا يخاف شيئاً سواه ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون** ﴾ قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب ، أقدموا واقتحموا فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم ، بقدر ما تقوى قلوبكم ، وشعروا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته ، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ، ولكن لم يقولان هذا الكلام ؟ لبنى إسرائيل ؟! ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ هكذا فى وقاحة العاجز الذى لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ، أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان ﴿ **فاذهب أنت وربك** ﴾ فليس بربهم إذا كانت ربوبتيه ستكلفهم القتال . ﴿ **إنا ها هنا قاعدون** ﴾ لا نريد ملكاً ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد ودونها لقاء الجبارين !

هذه هى نهاية المطاف بموسى عليه السلام ، نهاية الجهر الجهير والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات والإنحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل ، نعم ها هى ذى نهاية المطاف ، نكوصاً عن الأرض المقدسة وهو معهم على أبوابها ، ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق ، فماذا يصنع وبمن يستجير ؟ ﴿ **قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء وفيها الاستسلام وفيها بعد ذلك المفاصلة والحسم والتصميم .

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه ، ولكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول ، وفى إيمان النبى الكليم ، وفى عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجها إلا لله يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين ، فما يربطه بهم شىء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق ... ما يربطه بهم نسب ، وما يربطه بهم تاريخ ، وما يربطه بهم هذه الدعوة إلى الله وهذا الميثاق مع الله ، وقد فصلوه ، فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق .. وما عاد يربطه بهم رباط ، إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون ، إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون ، هذا هو أدب النبى وهذه هى خطة المؤمن ، وهذه هى الآصرة التى يجتمع عليها أو يتفرق عليها المؤمنون ، لا جنس ... ولا نسب ... لا قوم ... لا لغة لا تاريخ ... لا وشيجة كل وشائج الأرض ... إذا انقطعت وشيجة العقيدة ، وإذا اختلف المنهج والطريق . واستجاب الله لنبيه وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ﴿ **وقال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ .

وهكذا أسلمهم الله . وهم على أبواب الأرض المقدسة للتيه وحرم عليهم الأرض التى كتبها لهم ، والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل .. جيل يعتبر بالدرس وينشأ فى خشونة الصحراء وحريتها ... صلب العود ، جيل غير هذا الجيل الذى أفسده الذل والاستعباد والطغيان فى مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل ، والذل والاستعباد والطغيان يفسد

فطرة الأفراد وكما يفسد فطرة الشعوب ، ويتركهم السياق هنا فى التيه لا يزيد على ذلك ، وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية ... إلى الجمال الفنى على طريقة القران فى التعبير .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس مما قصه الله عليهم من القصص فحين واجهوا الشدة – وهم قلة – أمام نفير قريش فى غزوة بدر ، قالوا لنبيهم ﷺ : إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآنى فى التربية بالقصص عامة ... وبعض جوانب حكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل .

نبأ ابنى آدم

۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

المفردات : ﴿ **واتل** ﴾ : التلاوة القراءة ﴿ **نبأ** ﴾ : هو الخبر المهم . ﴿ **قربانا** ﴾ : ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من الذبائح وغيرها ﴿ **بسطت إلى يدك** ﴾ مددتها لتعتدى على . ﴿ **تبوء** ﴾ : ترجع بعقاب يعادل الإثم ويساويه . ﴿ **فطوعت له نفسه** ﴾ : شجعت وزينت . ﴿ **سوأة** ﴾ : السوأة العورة والمراد الجثة . ﴿ **ياويلتى** ﴾ : يافضيحتى احضرى والويل حلول الشر والويلة الفضيحة والبلية : أى وافضيحتاه . ﴿ **والأجل** ﴾ : فى الأصل الجناية ، يقال : وأجل عليهم شرا : أى جنى عليهم جناية ثم استعمل فى تعليل الجنايات ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل سبب . ﴿ **والبينات** ﴾ : الآيات الواضحة ، ﴿ **والإسراف** ﴾ : البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

هذه قصة تربوية ، تعبر عن مدرسة من مدارس القرآن ، تفيض عبرة وتتفجر حكمة ، لذا أمر الله

رسوله ومصطفاه ﷺ أن يتلوها على البشرية جمعاء .

وسماها القرآن نبأ لأن النبأ هو الخبر العظيم ، وأضاف النبأ إلى ابنى آدم لأن مكمن العبرة فيهما ، فعليهما تدور أحداث القصة : لقد خلق الله الأرض طاهرة التربة طيبة مباركة ، فملأها أهلها ذنوبا وانحرافات ومخالفات وجرائم وجنايات .

وكأنى بك يا ابن آدم وقد حملت على آلة حدباء إلى مثواك الأخير ، ووضعت على شفير القبر ، وكأنى بالقبر يقول لك بلسان حاله : يا ابن آدم : أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟ أعجلت المنية أم المنية عاجلتك ؟ يا ابن آدم لقد خرجت من التراب وعدت إلى التراب ... خرجت من التراب بغير ذنب وعدت إلى التراب بكل ذنب ، اعلم يا ابن آدم أن لابد لك من قرين يدفن معك وهو حى ، وتدفن معه وأنت ميت : إن كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما خذلك ، اجعله صالحا فإنه عملك .

أول جريمة وقعت على ظهر الأرض : الحسد عندما حسد إبليس آدم فخالف أمر الله فى السجود له ، ووسوس له حتى أخرجه من الجنة ، ثم حسد قابيل هابيل ، وكانت الجريمة الثانية القتل ، والقرآن الكريم عندما ذكر هذه القصة نص على مكمن العبرة فيها ، فقال : ﴿ **إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر** ﴾ وإن كان المفسرون قد ذكروا أسبابا لتقديم هذا القربان ، نذكر بعضها فنقول وبالله التوفيق :

عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخوالد ميمة : أنكحنى أختك وأنكحك أختى ، فقال : لا أنا أحق بأختى ، فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله .

وروى ابن أبى حاتم باسناده ، عن محمد بن على بن الحسين ، قال : قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل : إن ربى عهد إلىأنه كائنمن ذريتى من يقرب القربان فقربا قربانا ، حتى تقر عينى إذا تقبل قربانكما ، فقربا وكان هابيل صاحب غنم ، فقرب أكولة غنم خير ماله ، وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة[1] من زرعه ، فانطلق آدم معهما ، ومعهما قربانهما ، فصعدا الجبل فوضعا قربانهما ، ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان ، فبعث الله نارا حتى إذاكانتفوقهما دنا منها عنق ، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل ، فانصرفوا وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه ، فقال : ويلك يا قابيل رد عليك قربانك فقال قابيل : أحببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ، ورد على قربانى ، فقال قابيل لهابيل : لأقتلنك وأستريح منك : دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك ، وكان يتوعده بالقتل ، إلى أن احتبس هابيل ذات عشية فى غنمه ، فقال آدم : يا قابيل أين أخوك ؟ قال : وبعثتنى له

(١) المشاقة من الزرع أسوأ ما نتج من الأرض .

راعيا لا أدرى ؟ فقال آدم : ويلك يا قابيل انطلق فاطلب أخاك ، فقال قابيل فى نفسه : الليلة أقتله ، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب[١] ، فقال : يا هابيل تقبل قربانك ورد على قربانى ، لأقتلنك ، فقال هابيل : قربت أطيب مالى ، وقربت أنت أخبث مالك ، وإن الله لا يقبل إلا الطيب ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها ، فقال : ويلك يا قابيل : أين أنت من الله ؟ كيف يجزيك بعملك : فقتله فطرحه فى حوبة من الأرض ، وحثا عليه شيئا من التراب .

روى العوفى عن ابن عباس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا : لو قربنا قربانا ، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانا وكان أحدهما راعيا ، وكان الآخر حراثا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد على ، فلا والله لا ينظر الناس إلى وأنت خير منى ، فقال ﴿ **لأقتلنك** ﴾ فقال له أخوه ما ذنبى ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾[٢] .

قصة الآيات

لهذه الآيات قصة ، وقصص القرآن كلها عبرة وعظة لأولى الألباب ، وقد وضح المفسرون هذه القصة توضيحاً فيه العبرة والعظة ، قالوا : إن الله تعالى يسوق هذه القصة : ليبين طبائع النفوس الموروثة ، وما يفعله الحسد الكامن والداء الباطن ، الذى يقضى على أقوى سبب وأمتن رابطة ، وهى الأخوة ، وكيف كان السبب فى أول قتل فى الأرض ؟ فإذاً لا تأس يا محمد ولا تعجب من فعل اليهود ﴿ **إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم** ﴾ فهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم ربهم من فضله ، على أن هذا طبع فى أبناء آدم واتل يا محمد على قومك وعلى كل من تبلغه دعوتك ، اتل عليهم نبأ هاماً وخبراً متلبساً بالحق والصدق لا مبالغة فيه ولا كذب ، كما يفعل اليهود فى أخبارهم وكتبهم من التحريف والتبديل : خبر ابنى آدم لصلبه على الأصح ، قيل هما : قابيل (القاتل) وهابيل القتيل ، وكانت عادتهم أن يتزوج ذكر البطن الأولى أنثى البطن الثانية وبالعكس ، فصادف أن قابيل معه توأم جميلة ، ومع هابيل توأم دميمة رغب عنها قابيل ، وطلب توأمه وحسد هابيل عليها ، فلما احتكما إلى أبيهما آدم قال : كل منكم يقرب قرباناً ، والذى يتقبله الله منه بالحريق يأخذ الجميلة ، فقدم قابيل - وكان زارعا - قليلاً من سنبل القمح ، وقدم هابيل - وكان راعيا للغنم - كبشاً سميناً ، فتقبل الله من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فحنق عليه أكثر ، وقال : ﴿ **لأقتلنك** ﴾ قال هابيل : ولم يا أخى وما ذنبى فى أن الله لم يتقبل منك ؟ فأصلح نفسك ، وقدم مخلصاً لوجه الله ، فإنما ﴿ **يتقبل الله من المتقين** ﴾ يا أخى لئن مددت إلى يدك بالسوء تريد أن تقتلنى ظلماً وعدوانا ﴿ **ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك** ﴾ أبدا .

---

(١) أى عائد من المرعى .

(٢) ذكر هذه الروايات الامام السيوطى فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٧٣ .

وذلك لأنى أخاف الله رب العالمين ، الذى تعهدنا بالعناية والرعاية ، وخلقنا على أتم خلق وأكمله ، فمن يتعدى على هذا الخلق السوى فقد استحق العقاب الشديد !! يا أخى : أنى لا أريد مقابلة الجريمة بالجريمة أصلاً ، فإنك إن فعلتها تبوء بإثم قتلى وإثمك الخاص بك ، الذى كان من شأنه عدم قبول قربانك ، فارجع عما أنت مقدم عليه !! وكيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه ؟ والجواب أنه أراد ذلك حينما بسط إليه يده بالقتل فعلاً ﴿ **وجزاء سيئة مثلها** ﴾[1] . إنك يا أخى إن فعلتى هذا الجرم فستكون من أصحاب النار الملازمين لهما ، ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ !!! ونرى أنه نفره من القتل بثلاث : الخوف من الله ، أن يبوء بإثمه وإثم نفسه ، كونه من أصحاب النار ومن الظالمين ..

والقاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحب الانتقام والقتل ، يرى فى الإقدام على هذا العمل جرماً وفظاعة فيتردد ولا ينزال كذلك حتى تشجعه الأمارة بالسوء ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله** ﴾ وهدم ما بناه الله وأتقنه ، ﴿ **فأصبح من الخاسرين** ﴾ وأى خسارة أكبر من هذه الخسارة فى الدنيا والآخرة ؟؟

روى أنه لما قتله ، لم يعرف كيف يوارى جثته ، ويتحير ذلك ﴿ **فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض** ﴾ منقبا على غذائه[2] ، فحفر حفرة ، فرآه قابيل ففطن إلى مثل عمله ، ففعل لأخيه مثلها وواراه فيها ، وقال : ﴿ **ياويلتى** ﴾ احضرى فقد حان وقتك ، ﴿ **أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب** ﴾ ؟ والندم الذى حصل لم يكن على القتل بل على عجزه عن مواراة أخيه .

بسبب هذا الجرم الشنيع والفعلة القبيحة ، التى فعلها ابن آدم ﴿ **كتبنا على بنى إسرائيل** ﴾ وإنما خصهم القرآن بالذكر ، وإن كان القتل محرما قبلهم من الأمم السابقة ، لأن التوراة أول كتاب حرم فيه القتل كتابة بسبب طغيانهم وسفكهم الدماء وقتلهم الأنبياء بسبب الحسد الكامن فى نفوسهم ...

كتبنا على بنى إسرائيل ومن بعدهم : ﴿ **أنه من قتل نفساً بغير نفس** ﴾ أى بدون قصاص ﴿ **أو** ﴾ بدون ﴿ **فساد فى الأرض** ﴾ يزلزل الأمن والطمأنينة ، ويهلك الحرث والنسل وذلك مثل قطع الطريق ، من يفعل شيئاً من ذلك ﴿ **فكأنما قتل الناس جميعاً** ﴾ واعتدى على المجتمع البشرى كله !! أفلا يكون هذا الجرم فظيعاً ؟ إنه لفظيع ، ولذلك كان من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾[3] الآية من سورة النساء .

ومن هنا تعلم أن نفس القتيل ليست ملكه ، بل هو ملك للمجتمع الذى يعيش فيه ، فمن اعتدى على نفس ولو كانت نفسه (بالانتحار) استحق عقاب الله الشديد يوم القيامة .. ومن أحيا نفساً بأى سبب كان ، ﴿ **فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾ ، إذ كل نفس عضو فى المجتمع . ﴿ **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات** ﴾ الواضحات كالشمس أو أشد ، ﴿ **ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون** ﴾ بعد هذا البيان الساطع .

وهذه الآية تقرر بوضوح مبدأ تكافل الأمة الواحدة وتضامنها كوحدة خاصة .

---

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة الشورى . (٣) آية رقم ٩٣ من سورة النساء .

(٢) ذكر الله الوجه بعض المفسرين ، لكن الوجه الأشهر هو اقتتال الغراب مع أخه ثم حفره له فد فن : يراجع القرطبى ج ٦ ص ١٤١ .

حد الحرابة

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

المفردات : ﴿ **يحاربون** ﴾ : الحرب ضد السلم والأمن على النفس والمال . ﴿ **فسادا** ﴾ : الفساد ضد الصلاح ، وكل من أخرج شيئاً عن وضعه الصالح له يقال إنه أفسده . ﴿ **ينفوا من الأرض** ﴾ : ينقلوا من البلد أو القطر الذى أفسدوا فيه إلى غيره .

روى أحمد والبخارى ومسلم ، وأصحاب السنن ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ﴿ أن ناساً من عُكْل وعرينة [1] قدموا على النبى ﷺ وتكلموا بالإسلام فاستوخموا المدنية (وجدوها رديئة المناخ) فأمر لهم النبى ﷺ بذور (بضع من الإبل) وراع وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة [2] كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعى النبى واستاقوا الذور ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم فسملوا أعينهم (كحلوها بمسامير الحديد المحماة) وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم ﴾ [3] .

زاد البخارى أن قتادة الذى روى الحديث عن أنس قال « بلغنا أن النبى ﷺ عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة » .

إن هاتين الآيتين تضمننا عقاب المحاربين المفسدين فى الأرض الذين يعملون أعمالاً مخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض فى بلاد الإسلام ، معتصمين فى ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطاردهم الحكام ويتتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات ، بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات ، بل حكمه حكم سائر المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض** ﴾ أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر عقابهم ما سيذكر بعد على سبيل الترتيب والتوزيع على جناياتهم ومفاسدهم ، لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

---

(١) قبيلتان من قبائل العرب . (٢) أرض خارج المدينة ذات حجارة سوداء .

(٣) روى الحديث بالفاظ مختلفة دون اختلاف فى المعنى : القرطبى ج ٦ ص ١٤٨ .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزل الله على رسوله ، ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه فى حفظ الحقوق ، كما قال تعالى فى المصرين على أكل الربا : ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾[1] فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ، ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك ، كما فعل أبو بكر بما نعى الزكاة حتى يفيئوا ويرجعوا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم فى أى وقت يقبل منه ويكف عنه ، وقوله : ﴿ **ويسعون فى الأض فساداً** ﴾ أى يسعون فيها سعى فساد ، أى مفسدين لما صلح من أمور الناس فى نظم الأجتماع وأسباب المعاش .

وجمهور العلماء على أن الآية نزلت فى قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثه العرنيين الذين خدعوا النبى ﷺ والمسلمين بإظهار الإسلام ، حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم ، وقد عاقبهم النبى ﷺ بمثل عقوبتهم ، عملاً بقوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[2] ويشترط فى المحاربين ثلاثة شروط .

١ – أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير محاربين .

٢ – أن يكون ذلك فى الصحراء فإن فعلوا ذلك فى البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثورى وإسحق .

٣ – أن يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال ، فإن أخذوه خفية فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئاً لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم فهم قطاع طريق . والجزاء الذى يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل ، أو الصلب ، أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو النفى من الأرض ، وفوض لأولى الأمر الاجتهاد فى تقدير العقوبة بقدر الجريمة .

والحكمة فى عدم التعيين والتفصيل : أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ، ومنها إهلاك الحرث والنسل . أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب . أو الجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد ، فالإمام أن يقتلهم إن قتلوا أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالقتل العمد يوجب القتل ، ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص ، فغلظ ذلك فى قاطع الطريق ، وصار القتل حتما لا هوادة فيه ، ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى فى غير قاطع الطريق ، فغلظ فى قاطع الطريق بقطع الطرفين ، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع فى حقهم بين القتل والصلب ، لأن بقاءهم مصلوبين فى ممر الطرق يكون سبباً لاشتهار إيقاع هذه العقوبة فيصير ذلك زاجراً لغيرهم على الإقدام على مثل هذه المعصية ، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهى النفى من الأرض .

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٩ . (٢) جزء من الآية ٤٠ من سورة الشورى .

ثم بين آثار هذه العقوبة فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ **لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾ أى ذلك الذى ذكر من عقابه ذل لهم وفضيحة فى الدنيا ، ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم فى تدنيس نفوسهم وتدسيتها ، وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام .

ثم استثنى ممن يستحقون العقوبة من تاب فقال : ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره من قطعوا الطريق وعاثوا فى الأرض فساداً ، إلا من تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم ، فإن توبتهم حينئذ وهم فى قوة ومنعة جديرة بأن تكون قوية خالصة لله ، صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله ، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذا فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله ، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال : ﴿ **فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب فى الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلمن سلبهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحداً أن يطالبوه بدمه ، وهم مخيرون بين القصاص والدية والعفو فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عمن تاب ، ولم يثبت أن أحداً تقاضى التائب حقاً ولم يسمع له الحاكم وإذا فتوبته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوبة إلى أربابها فإذا رأى ولى الأمر إسقاط حق مالى عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة ، وجب أن يضمنه من بيت المال .

طريق الفلاح

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ **الوسيلة** ﴾ : ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهى القربة وتطلق على منزلة فى الجنة . ﴿ **والجهاد** ﴾ : بذل الطاقة واستفراغ الوسع . ﴿ **تفلحون** ﴾ : أى تفوزون برضى الله فى الدنيا والآخرة . ﴿ **ليفتدوا به** ﴾ : أى ليدفعوه فدية . ﴿ **عذاب مقيم** ﴾ : دائم وباق لا يرفع عنهم .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون** ﴾ خطاب كريم من رب كريم إلى المؤمنين الكرماء ، وقد أمرهم سبحانه فى هذه الآية بثلاثة أوامر ، كلها تشتمل على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم :

أمرهم بالتقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد فى سبيله ، ثم رتب سبحانه وتعالى على هذه الأمور الثلاثة أعظم العواقب وأشرف وأنبل الأهداف ، وهل هناك أسمى وأشرف من الفلاح ؟ إنه السعادة الأبدية ، والسعادة مملكة لا يهبها إلا مالك الملك وملك الملوك ، أما التقوى فهى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ، ومن أحبه الله كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها[١] ، ولسانه الذى يتكلم به ، وقلبه الذى يعى به ، ولئن سأل الله ليعطينه ، ولئن استعاذ به ليعيذنه ، ولئن استنصره لينصرنه ، ويكون جار الله فى الجنة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴿ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[٢] . والتقوى هى السلاح الأقوى ، وهى سنام الأمر وعموده ، ومحلها الصدر ، كما أخبر بذلك الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه ، مشيرا إلى صدره قائلا : « التقوى ها هنا » فهى عمل من أعمال القلوب لا يطلع عليه إلا الله .

والتقوى هى مدار تفريج الكروب وستر العيوب وتكفير الذنوب وإحياء القلوب ، قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[٣] وقال : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾[٤] وقال : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾[٥] وهى الكلمة الجامعة التى وصّى الله بها كل الأمم . قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[٦] وهى حصن الأمان للذرية إذا مات عائلها . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله ﴾[٧] .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

ويأتى الأمر الثانى بعد التقوى داعيا جماعة المؤمنين إلى ابتغاء الوسيلة ، والوسيلة هى : التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التى شرعها فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، ومنها ما ورد فى الحديث القدسى

---

(١) وذلك لما جاء فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت نفسى عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مسارته » .

(٢) جزء من الآية ٧٠ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٤) جزء من الآية ٤ من سورة الطلاق .

(٥) جزء من الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٦) جزء من الآية ١٣١ من سورة النساء .

(٧) جزء من الآية ٩ من سورة النساء .

الجليل عن الله عز وجل « ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » . **فكل عمل صالح تقربت به إلى الله فهو الوسيلة التى أمر الله عباده المؤمنين** بابتغائها . قال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾[١] .. ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أن سألوا غير الله كشف الضر أو جلب النفع ، وليس من معنى الوسيلة أن تسأل غير الله كشف ضر أو جلب نفع ، بل العقيدة الحقة أن تعلم علم اليقين بل حق اليقين وعين اليقين أن الله تعالى هو الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، المعطى المانع ، المحيى المميت ، الباعث الوارث ، الواجد الماجد ، القهار الجبار الغفار ، بيده الأمر كله ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] . أخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت رديف النبى ﷺ فقال : يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ قلت : بلى فقال : احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » .

وقد تأتى الوسيلة ويراد بها أعلى منزلة فى الجنة ، وقد روى الإمام مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن سمع النبى ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه ﷺ صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « سلوا الله لى الوسيلة فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » .

ثم يأتى بعد ذلك الأمر بالجهاد فى سبيل الله ، وهو من أعظم الأمور فى الإسلام شأنا قال تعالى : ﴿ **وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون** ﴾ . والجهاد هو بذل الطاقة واستفراغ الوسع فى سبيل إعلاء كلمة لا إلّه إلا الله ، ويشمل الجهاد بالنفس والمال والكلمة فى سبيل الدعوة إلى الله ، كما يشمل جهاد النفس وكبح جماحها بثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات ، لئلا تتردى فى القبائح : قال تبارك اسمه فى جهاد النفس والمال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٣] . وقال تعالى فى شأن الجهاد بأوسع معانيه : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[٤] . فمن اتقى الله وابتغى إليه الوسيلة بالعمل الصالح وجاهد فى سبيله كان أهلا بتلك الغاية النبيلة والشرف

(١) الآية ٥٧ من سورة الاسراء .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .
(٤) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

العظيم ، كان أهلا للفلاح والفوز والنجاح ، فاللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ هذا وعيد جاء بعد الوعد ، فقد وعد الله تعالى المؤمنين المتقين المتقربين إلى الله بالعمل الصالح ، المجاهدين فى سبيله وعدهم بالفلاح والفوز المبين ، وهو يشمل سعادة الدارين . قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[(١)] يأتى الوعيد بعد ذلك بالنار للذين كفروا وجحدوا ، سواء أكان كفرهم ناشئا عن شرك أم عناد أم إنكار أم نفاق ، فالكفر كله ملة واحدة . هؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ﴾[(٢)] .

هؤلاء لو يملكون ما فى الأرض جميعا ومثله معه – كما قال تعالى – ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم : قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾[(٣)] فيوم القيامة هو يوم العدالة : قال تعالى : ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه كلا إنها لظى ﴾[(٤)] . وقال جل شأنه : ﴿ فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[(٥)] . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[(٦)] ويزيد القرآن الكريم هذا المقام توكيدا ، وهذا الوعيد تثبيتا فيقول : ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾ أى ثابت دائم . هم يريدون والله يريد غير ما يريدون ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[(٧)] ويزيد الله تعالى هذا المعنى جلاء فيقول : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[(٨)] .

• عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع فيقال : هل تفتدى بقراب الأرض ذهبا ؟ قال فيقول نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار » . رواه مسلم وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال فقلت لجابر بن عبد الله يقول الله ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها** ﴾

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٢) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيتان ٩٠ ، ٩١ من سورة آل عمران .
(٤) الآيات ١١ – ١٥ من سورة المعارج .
(٥) الآيات ٣٣ – ٣٧ من سورة عبس .
(٦) الآيتان ٨٨ – ٨٩ من سورة الشعراء .
(٧) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة الزخرف .
(٨) الآيات ٢١ – ٣٠ من سورة النبأ .

قال اتل أول الآية ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به** ﴾ الآية ألا إنهم الذين كفروا [١] .

حد السرقة

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

المفردات : ﴿ **السارق** ﴾ : من يأخذ المال خفية من حرز مثله . ﴿ **نكالا** ﴾ : مأخوذ من النكل وهو القيد ، ولاشك أن هذه عقوبة تمنع الناس من ارتكاب السرقة .

أحكام تتعلق بالسرقة

إن الإسلام قد احترم المال ، من حيث إنه عصب الحياة ، واحترم ملكية الأفراد له ، وجعل حقهم فيها حقا مقدسا ، لا يحل لأحد أن يعتدى عليه بأى وجه من الوجوه ، ولهذا حرم الإسلام : السرقة ، والغصب ، والاختلاس ، والخيانة ، والغش ، والتلاعب بالكيل والوزن ، والرشوة واعتبر كل ما أخذ بغير سبب مشروع أكلا للمال بالباطل . وشدد فى السرقة ، فقضى بقطع يد السارق التى من شأنها أن تباشر السرقة ، وفى ذلك حكمة بينة ، إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم ، والتضحية بالبعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول ، كما أن فى قطع يد السارق عبرة لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس ، فلا يجرؤ أن يمد يده إليها ، وبهذا تحفظ الأموال وتصان : يقول الله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا . نكالا من الله ، والله عزيز حكيم** ﴾ .

حكمة التشديد فى العقوبة :

والحكمة فى تشديد العقوبة فى السرقة دون غيرها من جرائم الاعتداء على الأموال ، هى ما جاء فى شرح مسلم للنووى[٢] : قال القاضى عياض رضى الله عنه : « صان الله الأموال بإيجاب القطع على السارق ، ولم يجعل ذلك فى غير السرقة ، كالاختلاس والانتهاب والغصب ، لأن ذلك قليل بالنسبة إلى السرقة ، ولأنه يمكن استرجاع هذا النوع بالاستدعاء إلى ولاة الأمور ، وتسهل إقامة البينة عليه بخلاف السرقة ، فإنها تندر إقامة البينة عليها فعظم أمرها ، واشتدت عقوبتها ، ليكون أبلغ فى الزجر عنها » .

(١) رواه القرطبي عن يزيد الفقير عن جابر بعبارة مختلفة والمعنى واحد ج ٦ ص ١٥٩ .

(٢) ص ١٨٠ من الجزء الحادى عشر : طبع محمود وتوفيق سنة ١٩٤٥ .

أنواع السرقة :

والسرقة أنواع :

١ - نوع منها يوجب التعزير . ٢ - ونوع منها يوجب الحد .

والسرقة التى توجب التعزير هى السرقة التى لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، وقد قضى الرسول ﷺ بمضاعفة الغرم على من سرق مالا قطع فيه : قضى بذلك فى سارق الثمار المعلقة ، وسارق الشاة من المرتع . ففى الصورة الأولى : أسقط عن سارق الثمر والكثر (جمار النخل) ، وحكم : أن من أصاب شيئا منه بفمه . وهو محتاج إليه . فلاشىء عليه ، ومن خرج منه بشىء فعليه غرامة مثليه والعقوبة ، ومن سرق منه شيئاً فى جرينه « الجرن » فعليه القطع إذا بلغت قيمة المسروق النصاب الذى يقطع فيه . وفى الصورة الثانية : قضى فى الشاة التى تؤخذ من مرتعها بثمنها مضاعفا ، وضرب نكال (أى ضربا يكون فيه عبرة لغيره » . وقضى فيما يؤخذ من عطنه بالقطع ، إذا بلغ النصاب الذى يقطع فيه سارقه .

رواه أحمد والنسائى والحاكم وصححه .

السرقة التى عقوبتها الحد نوعان :

الأول : سرقة صغرى : وهى التى يجب فيها قطع اليد .

الثانى : سرقة كبرى ، وهى أخذ المال على سبيل المغالبة ويسمى الحرابة ، وتسمى أيضا قطع الطريق ، وهى خروج طائفة مسلحة فى دار الإسلام لإحداث الفوضى وسفك الدماء ، وسلب الأموال وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل ، وعقوبتها : القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف أو النفى من الأرض[1] .

وكلا منا الآن منحصر فى السرقة الصغرى .

تعريف السرقة :

السرقة : هى أخذ الشىء فى خفية ، يقال : استرق السمع : أى سمع مستخفيا ويقال : هو يسارق النظر إليه ، إذا اهتبل غفلته لينظر إليه . وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾[2] فسمى الاستماع فى خفاء استراقا . وفى القاموس : السرقة والاستراق : المجىء مستتراً لأخذ مال الغير من حرز .. وقال ابن عرفة : « السارق عند العرب هو ما جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له » . ويفهم مما ذكره صاحب القاموس وابن عرفة أن السرقة تنتظم أمورا ثلاثة :

١ - أخذ مال الغير .

(١) سبق شرح ذلك عند تفسير قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ... الآيات رقم ٣٣ ، ٣٤ من هذه السورة .

(٢) آية ١٨ من سورة الحجر .

٢ - أن يكون هذا الأخذ على جهة الاختفاء والاستتار .
٣ - أن يكون المال محرزاً . أى موضوعا فى مكان خاص وليس فى مكان عام مشاع فلو لم يكن المال مملوكا للغير ، أو كان الأخذ مجاهرة ، أو كان المال غير محرز ، فإن السرقة الموجبة لحد القطع لا تتحقق .

المختلس والمنتهب والخائن غير السارق :

ولهذا لا يعتبر الخائن ، والمنتهب ، ولا المختلس سارقا ، ولا يجب على واحد منهم القطع وإن وجب التعزير : فعن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ليس على خائن[1] ولا منتهب[2] ولا مختلس[3] قطع » . رواه أصحاب السنن والحاكم والبيهقى . وعن محمد بن شهاب الزهرى قال : « إن مروان بن الحكم أتى بإنسان قد اختلس متاعا فأراد قطع يده ، فأرسل إلى زيد بن ثابت يسأله عن ذلك ، فقال زيد : ليس فى الخلسة قطع » . رواه مالك فى الموطأ . قال ابن القيم : وأما قطع يد السارق فى ثلاثة دراهم وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب فمن تمام حكمة الشارع أيضا ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه ، فإنه ينقب الدور ، ويهتك الحرز ، ويكسر القفل ، ولا يمكن لصاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك ، فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضا ، وعظم الضرر واشتدت المحنة بالسراق . بخلاف المنتهب والمختلس ، فإن المنتهب : هو الذى يأخذ المال جهرة بمرأى من الناس فيمكنهم أن يأخذوا على يديه ويخلصوا حق المظلوم ، أو يشهدوا له عند الحاكم . وأما المختلس : فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره ، فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه ، وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس فليس كالسارق ، بل هو بالخائن أشبه .

وأيضا فالمختلس إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالبا ، فإنه الذى يغافلك ويختلس متاعك فى حال تخليك وغفلتك عن حفظه ، وهذا يمكن الاحتراز منه غالبا فهو كالمنتهب وأما الغاصب فالأمر منه ظاهر ، وهو أولى بعدم القطع من المنتهب ، ولكن يسوغ كف عدوان هؤلاء بالضرب والنكال والسجن الطويل والعقوبة بأخذ المال .

الصفات التى يجب اعتبارها فى السارق وتستوجب حد القطع :

١ - **التكليف** : بأن يكون السارق بالغا عاقلا ، فلا حد على مجنون ولا صغير إذا سرق لأنهما غير مكلفين ، ولكن يؤدب الصغير إذا سرق ، ولا يشترط فيه الإسلام ، فإذا سرق الذمى أو المرتد فإنه يقطع ، كما أن المسلم يقطع إذا سرق من الذمى .

٢ - **الاختيار** : بأن يكون السارق مختارا فى سرقته ، فلو أكره على السرقة فلا يعد سارقا ، لأن الإكراه يسلبه الاختيار ، وسلب الاختيار يسقط التكليف .

---

(١) الخائن هو من يأخذ المال ويظهر النصح للمالك .
(٢) المنتهب : هو الذى يأخذ المال غصبا مع المجاهرة والاعتماد على القوة .
(٣) المختلس : هو من يخطف المال جهراً ويهرب .

٣ – ألا يكون للسارق فى الشىء المسروق شبهة[1] ، فإن كانت له فيه شبهة فإنه لا يقطع ، ولهذا لا يقطع الأب ولا الأم بسرقة مال ابنهما ، لقول الرسول ﷺ « أنت ومالك لأبيك » وكذلك لا يقطع الابن بسرقة مالهما أو مال أحدهما لأن الابن يتبسط فى مال أبيه وأمه عادة ، ولا يقطع أحد من الأصول والفروع ، أى الآباء والأجداد والأبناء وأبناء الأبناء .

الصفات التى يجب اعتبارها فى المال المسروق :

أولا : أن يكون مما يتمول ويملك ويحل بيعه وأخذ العوض عنه ، فلا قطع على من سرق الخمر والخنزير ، حتى لو كان المالك لهما ذميا لأن الله حرم ملكيتهما والانتفاع بهما بالنسبة للمسلم وللذمى على السواء ، وكذلك لا قطع على سارق أدوات اللهو مثل العود والكمنج والمزمار ، لأنها آلات لا يجوز استعمالها عند كثير من أهل العلم ، فهى ليست مما يتمول ويتملك ويحل بيعه . وأما الذين يبيحون استعمالها فهم يتفقون مع من يحرمها فى عدم قطع يد سارقها لوجود شبهة ، والشبهات مسقطة للحدود .

ثانيا : أن يبلغ الشىء المسروق نصابا ، فإن من العادة التسامح فى الشىء الحقير من الأموال . وذهب جمهور العلماء إلى أن القطع لا يكون إلا فى سرقة ربع دينار من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ، أو ما تساوى قيمته ذلك لما روى عن عائشة رضى الله عنها : أن الرسول ﷺ « كان يقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدا » وفى رواية مرفوعا « لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا » .

عقوبة السرقة :

إذا ثبتت جريمة السرقة وجب إقامة الحد على السارق فتقطع يده اليمنى من مفصل الكف وهو الكوع لقوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ ولا يجوز العفو عنها من أحد . لا من المجنى عليه ولا من الحاكم . طالما وصلت إلى الإمام ،قال ﷺ : « تجافوا العقوبة بينكم ، فإذا انتهى بها إلى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا » فإذا سرق ثانيا تقطع يده اليسرى ثم إذا عاد إلى السرقة تقطع رجله اليمنى ثم إذا سرق يعزر ويحبس كما قال الإمام الشافعى وغيره . وتحسم يد السارق بعد القطع فتكوى بالنار أو تتخذ أى طريقة من الطرق حتى ينقطع الدم فلا يتعرض المقطوع للتلف والهلاك ، ومن التنكيل بالسارق والزجر لغيره أمر الشارع بتعليق يد السارق المقطوعة فى عنقه .

هذا حكم من أحكام الله تعالى شرعه وفرضه ، وهو أعلم بما يصلح به عباده ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ لا أحد ، ومن أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[2] ؟ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[3] إن من أعظم نعم الله تعالى على عباده نعمة الأمن بأوسع معانيه : الأمن على النفس والمال والعقل والعرض ، ومن ثم فقد حد الحدود ، ولله تعالى فرائض فلا تضيعوها ، وحرمات فلا تنتهكوها ،

(١) أى وجه من وجوه الاستحقاق .
(٢) آية ١٤٠ من سورة البقرة .
(٣) آية ٢٣٢ من سورة البقرة ، ٦٦ من سورة آل عمران .

وحدود فلا تعتدوها وقد سكت سبحانه وتعالى عن أشياء رحمة بنا – من غير نسيان – فلا تسألوا عنها .

وليس هناك أى داع يدعو وهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون إلى أن يشنوا هذه الحملة الشعواء على حدود الإسلام ، إنهم عندما يعارضون تطبيق الشريعة وينظرون إلى هذه الشريعة الغراء نظرة قاصرة ، إنهم بذلك يمضغون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، فأى شرع بلغ ما بلغ شريعة الله من العدل والحق ؟ إنها تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فالله جل جلاله جعل الحدود جوابر وزواجر ، وكفارات للذنوب وهى فى نفس الوقت فيها الدرس الواعى ، والنصح الرشيد لكل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء أن يعكر صفو المجتمع ، ويخل بأمنه ، فيعتدى على حقوق الآخرين ، إذ تنتهى حرية المرء عندما تبدأ حرية غيره ، ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[1] ولقد كان لحد السرقة النصيب الأوفى من الافتراء الذى شنه هؤلاء الذين هاجت عقارب الحقد فى قلوبهم ، وتحركت ثعابين البغضاء فى صدورهم ، فباسم الرحمة الزائفة ، والشفقة الكاذبة اعترضوا ، وباسم الضلال المبين والمدنية المزورة ، قلبوا للإسلام ظهر المجن ، ولبسوا له ثوب النمر ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، نسوا أن الذى شرع هذه الحدود هو أرحم الراحمين ، الذى قال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[2] بل هو أرأف بنا من الأم بولدها .

روى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ عن الأمين جبريل عن رب العزة أنه قال « إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى » ونسوا أن رسول الإسلام هو الذى قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن » . « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقد بلغ من جرأتهم أنهم قالوا زورا وبهتانا وظلما وعدوانا قالوا : إن الفـاروق رضى الله عنه عطل حد السرقة فى عام الرمادة .. سبحانك هذا بهتان عظيم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فما كان لفاروق هذه الأمة أن يعطل حداً من حدود الله ، وهو الذى كان يقول لبطنه الذى تأثر من كثرة ما أكل بالزيت فكان يحدث أصواتا ، كان يقول لبطنه : «قـرقـر أولا تقرقر لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين » . إنه لم يعطل حدا ، ولكنه رأى بثاقب فكره وصائب رأيه ، وعميق فهمه ونفاذ بصيرته ، كما اقتضت العدالة ذلك – رأى أن إقامة حد السرقة لم تستوف الشروط ، وإذا لم يستوف الحد شروطه بسبب شبهة المجاعة ، فمن الظلم أن يقام ، فهل يرضون لعمر أن يكون ظالما ، والحدود تدرأ بالشبهة ، وعمر هو الذى قال عنه ابن عباس : أكثروا من ذكر عمر . فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل ، وفى ذكر العدل ذكر لله تعالى يا أمير المؤمنين :

إن جاع فى شدة قوم شركتهمو	فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها

(١) آية ٤٤ من سورة يونس .

(٢) جزء من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى، فقومى لبيت المال رديها

إن إقامة الحدود جانب عظيم من جوانب الرحمة ، إذ كيف يعامل اللص ، وهو الذئب الذى يسطو على الآمنين ؟ كيف يعامل بالإحسان والعطف والرحمة بمفهومها الحقيقى ؟ إن الرحمة لابد أن تصاحبها الحكمة ، لذا قد ختم الله تعالى بقوله تعالى « عزيز حكيم » والحكمة وضع الشىء فى نصابه ، ومن الحكمة أن تقص أنياب الذئب ومخالبه :

ووضع الندى فى موضع السيف بالفتى مضر كوضع السيف فى موضع الندى

جىء لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ذات يوم بسارق ، فلما هم بقطع يده ، قالت له أم السارق : اعف عنه يا أمير المؤمنين فهذه أول مرة ! قال لها العبقرى الفذ : لو كانت أول مرة لستره الله ، ولعل أمير المؤمنين قد تذكر قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾[1] وقد صدق عمر عندما قال قولته لأم السارق فقد ظهر بعد ذلك واتضح أنه سرق ست عشرة مرة .

وبعد بيان الأحكام المتعلقة بحد السرقة بقى ها هنا كلمة عن ختام الآية بقوله تعالى : « والله عزيز حكيم » فقد سمعها أعرابى من قارئ وقد ختمها بقوله « والله غفور رحيم » فقال له : ما هكذا نزلت : قال له : أتحفظها أيها الأعرابى ؟ قال : لا . ولكنه تعالى عز فحكم فقطع ولو أنه غفر ، رحم ، فما قطع فلما رجع إليها قارئها وجدها كما قرأها الأعرابى « والله عزيز حكيم » وقد قال أحدهم :

يد بخمس مئين عسجد وُديت ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقضٌ مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

فرد عليه أحد الحكماء بهذا البيت :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة .

توبة السارق

قال ﷺ : السارق إذا تاب سبقته يده إلى الجنة ، فإذا لم يتب سبقته إل النار . وسنعرض من أحاديث الصادق المعصوم وسنته الحكيمة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ أى من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلابد من ردها إليهم . أو بدلها . عند الجمهور ، وقد روى الحافظ أبو الحسن

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال : ما إخاله سرق ! فقال السارق : بلى يا رسول الله ، قال : « اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم أتونى به » فقطع فأتى به فقال : « تُبْ إلى الله » فقال : تبت إلى الله ، فقال : « تاب الله عليك » .

وروى ابن ماجه بسنده : أن عمر بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى سرقت جملا لبنى فلان فطهرنى ، فأرسل إليهم النبى ﷺ : فقالوا إنا افتقدنا جملا لنا ، فأمر به فقطعت يده وهو يقول : الحمد لله الذى طهرنى منك ، أردت أن تدخلى جسدى النار .

وعن عبد الله بن عمر وقال : سرقت امرأة حليا ، فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا يدها اليمنى ، فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ .

وهذه المرأة هى المخزومية التى سرقت ، وحديثها ثابت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح . فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله . فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل » فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنى والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها . قال عائشة : فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتى بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . وقد روى النسائى أن امرأة كانت تستعير الحلى للناس ثم تمسكه « أى عندها » فقال رسول الله ﷺ لتتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله وترد ما تأخذ على القوم ثم قال رسول الله ﷺ : « قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها » .

فما أعظم رحمة الله وما أحلمه بعباده ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم ﴾[1] فيا إلهى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[2] وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

قوله تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾ : جاءت هذه الآية عقب آية التوبة ، ليعلم الله عباده أنه ما تاب عليهم وما قبل توبتهم لحاجته إليهم ، بل كان ذلك كذلك بمحض منه وفضله ، فإنه سبحانه مالك الأمر كله : فالقضاء حكمته والوجود ملكه ، وكل الكائنات طوع إرادته ، فهو المالك المتصرف يغفر لمن يشاء لحكمة يعلمها هو ، ويعذب من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه . فقد تنزه فعله عن العبث لأنه الحكيم وليست المشيئة مبنية على

(١) آية ٥٣ من سورة الزمر .
(٢) جزء من الآية ١٥٦ من سورة الاعراف .

هوى أو غرض حاش لله . بل إنها مبنية على العدل المطلق ، والحق المطلق والصدق المطلق : قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾(١) وقال جل شأنه فى حق قوم موسى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢) وقال عز من قائل : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾(٣) .

ولما ذكر سبحانه أن مالك السماوات والأرض المتصرف فى شئون الكون ، ناسب ذلك أن يختم الآية بقوله : ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ إذ يلزم أن يكون المتصرف قادراً فما بالك بالإله الأكبر الذى ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾(٤) فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا .

من مساوىء اليهود

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ **الحزن** ﴾ : ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب ، و﴿ **سارع إلى الشىء** ﴾ : إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه ، و﴿ **أسرع فيه** ﴾ : إذا أسرع فيه وهو داخل فيه ، وهنا كان الكفار داخلين فى ظرف الكفر ، محيطا بهم سرادقه ، و﴿ **الفتنة** ﴾ : الاختبار كما يفتن الذهب بالنار فيظهر

(١) آية ١٧ من سورة فصلت .
(٢) جزء من الآية ٥ من سورة الصف .
(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .
(٤) جزء من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

مقدار ما فيه من الغش والزغل ، و﴿ **السحت** ﴾ : ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبح الذكر ، كثمن الكلب والخنزير والخمر والرشوة فى الحكم . ﴿ **والقسط** ﴾ : العدل

خطاب من الله الكريم إلى نبيه الكريم بعنوان الرسالة ، والذى يقرأ خطاب الله لرسوله فى القرآن يجد الإكرام والحفاوة ، فالله جلت قدرته وتعالت عظمته زاد محمداً ﷺ تكريما وحباه فضلا من لدنه عميما : إذا نادى على نبىّ من أنبيائه ناداه باسمه فترى الخطاب الكريم إلى آدم : ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[1] كذلك إلى غيره من الأنبياء : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا ﴾[2] و﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾[3] ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾[4] ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾[5] ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾[6] ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾[7] ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ﴾[8] .

فإذا أراد سبحانه أن يخاطب حبيبه ومصطفاه ، خاطبه بعنوان الرسالة : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ أو بعنوان النبوة : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ﴾[9] حتى فى مقام الملاطفة الربانية : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾[10]. وفى مقام التشريع : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾[11]. وإذا نادى على نسائه أضافهن إليه بعنوان النبوة ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾[12] إنه التكريم ومن أحق بالتكريم منه ، نبىّ أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك فى حسن وفى شرف ... والبحر دونك فى خير وفى كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من العدم

إنه خاتم النبيين ورسول الله رب العالمين ﷺ وفى هذا النص الكريم تسلية له ﷺ ﴿ **لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر** ﴾ لا يكن فى صدرك أى ضيق من أفعال هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر ، ولقد بلغ من قبائحهم : أنهم أضافوا إلى المسارعة فى الكفر رذيلة من أخص الرذائل وسجية من أحط السجايا ، أضافواالنفاق ﴿ **يقولون آمنا بأفواههم** ﴾ والله جلت قدرته يحكم على ما فى قلوبهم فيقول ﴿ **ولم تؤمن قلوبهم** ﴾ لقد حسبوا أن لهم ما يشاءون من القول ، ونسوا أن هناك إلَها يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[13].

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة البقرة ، ومن الآية ١٩ من سورة الاعراف .
(٢) جزء من الآية ٤٨ من سورة هود .
(٣) جزء من الآية ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الصافات .
(٤) جزء من الآية ١١ ، ١٢ من سورة طه .
(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص .
(٦) جزء من الآية ٧ من سورة مريم .
(٧) جزء من الآية ١٢ من سورة مريم .
(٨) جزء من الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
(٩) جزء الآية ٤٥ من سورة الأحزاب .
(١٠) جزء من الآية الأولى من سورة التحريم .
(١١) جزء من الآية الأولى من سورة الطلاق .
(١٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة الأحزاب .
(١٣) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة .

إن النفاق مرض اجتماعى خطير ، والمنافقون هم الآكلون على كل الموائد ، إنهم عالة على المجتمع أوقات السّراء، وسوس ينخر فى عظام الأمة حين الضراء ، والبأساء : قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران . أبى يغترون أم على يجترئون » فلا يحزنك ما يفعله هؤلاء المارقون ، واصبر واحتسب .

قوله تعالى : ﴿ **ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك** ﴾ : هذا حديث عن اليهود بعد الحديث عن المنافقين . وهل اليهود والمنافقون إلا شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، لقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم إخوان اليهود : قال تعالى فى سورة الحشر : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوايقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً . وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾[1] .. والله سبحانه وتعالى يخبر هنا : أن من اليهود من يسمعون الكذب ويسمعون لقوم آخرين لم يأتوك ، فينقلون عنهم الحديث وهم كاذبون . كذلك من صفاتهم المتأصلة فيهم : أنهم يحرفون الكلم ويغيرونه من بعد مواضعه ، ومن صور هذا التحريف قولهم : ﴿ **إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ وبمعرفة سبب النزول يبدو المعنى جليا واضحا : أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن البراء بن عازب قال : « مر النبى ﷺ بيهودى محمما مجلودا ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال النبى ﷺ : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذا أماتوه وأمر به فرجم فأنزل الله ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إلى قوله إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾[2] .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبى ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون فى كتابكم ؟ قالوا نسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتم إن فيها الرجم ﴿ **فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هى تلوح (أى آية الرجم) فقالوا : يا محمد إن فيها الرجم ، ولكنا كنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فلقد يجأ عليها (ينحنى) يقيها الحجارة بنفسه » .

وهكذا وصف الله هؤلاء المارقين بأنهم سماعون للكذب ، وهو ما كانوا يرددونه من الأباطيل ،

---

(١) آية ١١ من سورة الحشر .

(٢) أفاض القرطبى فى ذكر روايات عدة فى ذلك الشأن ج ٦ ص ١٧٦ ، ١٧٧ وما بعدهما .

وإنكار ذكر النبوة المحمدية فى التوراة ، كما أنهم سماعون لقوم آخرين ، وقد يكون المقصود بهؤلاء القوم الآخرين رؤساء اليهود ، وقد يكون المعنى أنهم يسمعون لهم ، أى يسمعون لما يقال فى مجالس الرسول والمؤمنين ، لأجل أن يبلغوه إلى الذين لم يأتوا رسول الله .

ووصفهم الله تعالى أيضا بأنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه أى يغيرون ما فى التوراة من أحكام .

ثم جاءت جملة ﴿ **يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ جاءت مفسرة لقوله جل شأنه : ﴿ **يحرفون الكلم من بعد مواضعه** ﴾ ذلك لأنهم تآمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يخفوا آية الرجم ، وقال بعضهم لبعض : إن أعطاكم محمد حكم الجلد فخذوه وإن لم يعطكم إياه فاحذروه أى احذروا أن تأخذوا الرجم ، وذلك كما تبين لنا فى ذكر سبب النزول ، ثم عقب الله تعالى على مواقف هولاء بقوله﴿ **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا** ﴾ فقد امتحن الله هؤلاء فى دينهم ، فظهر كفرهم بخاتم الأنبياء ﷺ ، وتجلت الحقائق التى كانوا يثنون صدورهم عليها ، فهم سماعون للكذب ينقلون الأباطيل إلى رؤسائهم ، كما أن رؤساءهم يضلونهم عن سواء السبيل ، يحرفون كلام الله فى التوراة يخفون أحكام الله التى جاء بها القرآن مؤيداً لما فى التوراة ، فظهرت الفتنة ووضح الامتحان ، فسقطوا فى الفتنة ، ومن كان شأنه كذلك فلن تملك له من الله شيئا ، ثم حكم عليهم مولانا بعد ذلك بقوله ﴿ **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم** ﴾ ذلك لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[1] .

ما جزاء هؤلاء ؟ قال تعالى : ﴿ **لهم فى الدنيا خزى** ﴾ وذلك بفضح تآمرهم وخداعهم قال تعالى : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[2] . هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فقد قال تعالى : ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾ . فالجزاء من جنس العمل ، فهؤلاء لما عظمت جرائمهم ، عظم عذابهم واشتد .

ثم أضاف الله تعالى إلى الصفات السابقة ما يؤكد بعضها ويضيف جديدا إليها : قال تعالى : ﴿ **سماعون للكذب أكالون للسحت** ﴾ فأكد سماعهم للكذب والإرجاف بالشائعات المغرضة ، والأباطيل المجافية للحق ، وتوكيد هذه الصفة دليل قاطع على تأصلها فيهم ، وفى التعبير بصيغة المبالغة ﴿ **سماعون** ﴾ ما يدل على مدى إسرافهم فى تلك الرذيلة ، بحيث أصبحت من الفحش بمكان .. ثم يصفهم تعالى بأنهم ﴿ **أكالون للسحت** ﴾ وهكذا بصيغة المبالغة أيضا . والسحت ما تناهى فى الحرمة فهم المتعاملون بالربا ، الآكلون للرشى ، المجافون للحق . قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾[3] . قوله تعالى : ﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ أى إن جاءوك متحاكمين

(١) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الليل .
(٢) من آية رقم ٩ من سورة البقرة .
(٣) من الآية ١٦٠ من سورة النساء .

إليك فأنت مخيّربين الحكم بينهم ، والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم فى بلادهم وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون فى كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام فى البيوع والمواريث وسائر العقود ، إلا فى بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرون عليه فيما بينهم دون المسلمين قوله تعالى ﴿ **وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا** ﴾ أى عند إعراضك عنهم فلا تخش منهم أحدا ، ولا تخف منهم ضرراً ، فقد تعهد الله تعالى بحفظك فى قوله : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[1] . قوله تعالى : ﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾ هذا توجيه إلهى فيه البيان الشافى والجواب الوافى ، فالإسلام هو العدل والحق والقسط وحكم الله عادل مقسط ، مع الأحباء والأعداء ، فالعدل هو العدل لا يتجزأ ولا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[2] . قوله تعالى : ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ : هذا تعجب من الله تعالى لحال هؤلاء الذين أنزل الله عليهم كتابا فيه هدى ونور هو التوراة ، وفيها حكم الله واضح جلى وهم يعلمون ذلك علم اليقين ، ومع ذلك يحكمونك وبعد تحكيمهم لك وعلمهم بأنك الحق وحكمك الحق ، وأنت مصباح الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات ، مع علمهم بهذا كله يتولون معرضين عن حكم الله ويحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

إن الله تعالى حكم عليهم بقوله : ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ إذ كيف يتأتى الإيمان مع الإعراض والتولى عن حكم الله قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[3] فهذا هو منطق الإيمان الصحيح : تحكيم يتبعه عدم الحرج أى حرج مما قضى الله ورسوله ، يصحبه تسليم مطلق وتفويض وإذعان ورضا ..

الحاكمية لله وحده

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

(١) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة وسيأتى تفسيرها وذكر أسبابه ولها .

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها . (٣) الآية ٦٥ من سورة النساء .

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾

المفردات : ﴿ **التوراة** ﴾ : الكتاب الذى أنزل على موسى . ﴿ **والذين هادوا** ﴾ : هم اليهود . و﴿ **الربانيون** ﴾ : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، و﴿ **الأحبار** ﴾ : واحدهم حبر وهو العالم . ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾ : أى بما طلب إليهم حفظه منه ، و﴿ **شهداء** ﴾ : أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به : ﴿ **قفاه** ﴾ : به تقفية : جعله يقفو أثره كما قال : ﴿ وقفينا من بعده بالرسل ﴾[1] . و﴿ **الفاسقون** ﴾ : أى الخارجون من حظيرة الدين المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ : إخبار منه جل شأنه بأن التوراة كتاب سماوى أنزله العليم الحكيم على موسى الكليم ، فما حكم به نبى الله محمد ﷺ فى تلك الحادثة التى وقعت بين اليهود ، جاء موافقا لما حكم الله به فى التوراة ، فلا مجال لهؤلاء الذين حاولوا أن يقفوا موقف المساومة من شرع الله المنزل على خاتم الأنبياء وعلى كليم الله موسى : يقولون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾[2] وقد حكم رسول الله ﷺ حكماً صادقا ، حكم به الله تعالى فى كتاب التوراة . قوله تعالى : ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا** ﴾ : فى هذا النص إشارة صريحة بأن النبيين دينهم واحد هو الإسلام ، وليس هناك أى اختلاف بينهم فى العقيدة . عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله . فهؤلاء النبيون الذين كلفوا بأحكام التوراة من لدن موسى يحكمون بما فيها للذين هادوا (أى اليهود) ، كذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والمراد بالربانين العلماء العباد ، وبالأحبار العلماء الذين استحفظهم الله كتابه واستودعهم إياه ، وطلب منهم حفظه ، وكانوا عليه شهداء شهادة صدق بأنه من قبل الله . قوله تعالى : ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾ : بمصداق ذلك قوله جل شأنه : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾[3] . وقوله جل شأنه : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[4] .. فمن تصدى للحكم بما أنزل الله والدعوة إلى الله كان واجبا عليه أن يخشى الله وحده ، فمن أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن

(١) جزء من الآية ٨٧ من سورة البقرة .
(٢) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها .
(٣) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأحزاب .
(٤) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر .

أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . قوله تعالى : ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا** ﴾ : المراد بالثمن القليل هو الدنيا والسلطان والجاه ، وقد كان اليهود ينكرون رسالة رسول الله ﷺ ويجحدون ما جاء بشأنه فى التوراة حسداً منهم له ، وبغيا وظلما وعدوانا ، يبتغون من وراء ذلك الرئاسة والزعامة وحب الدنيا ، والدنيا مهما أعطت وتزينت فهى ثمن قليل تافه .

قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ : هذا النص الكريم اقتضتنا الأمانة العلمية أن نوضح أقوال العلماء فيه : فماذا قالوا فى الحكم بغير ما أنزل الله ؟

(١) قال عبد العزيز بن يحيى الكنانى : قوله ﴿ **بما أنزل الله** ﴾صيغة عموم ، فقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ معناه : من أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، قال : وهذا حق ، لأن الكافر هو الذى أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله ، فالمراد ترك الحكم بجميع ما أنزل الله ، قال : ويدخل فى ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام ، أما الفاسق فإن لم يأت بضد حكم الله إلا فى القليل وهو العمل ، أما فى الاعتقاد والإقرار فهو موافق ، وقال أيضا : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فهو كافر ، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل فى هذه الآية . ومثل هذه ما قيل : إن المراد بعموم النفى بحمل (ما) على الجنس ، ولاشك أن من لم يحكم بشىء مما أنزل الله تعالى لا يكون مصدقا ولا نزاع فى كفره .

(٢) وقال ابن الأنبارى : يجوز أن يكون المعنى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ فقد فعل فعلا يضاهى أفعال الكفار[١] ويشبه من أجل ذلك الكافرين ، وهو عدول عن الظاهر .

(٣) ومنهم من تأول الآية على الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ فى التأويل ، حكاه البغوى عن العلماء عموما .

(٤) ومنهم من تأول على أن ذلك يختلف باختلاف الحاكم ، فإن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر ، وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة ، على أصل أهل السنة فى الغفران للمذنبين .

(٥) قال ابن القيم : والصحيح أن الحكم بما أنزل الله يتناول الكفرين الأكبر والأصغر بحسب حالة الحاكم ، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى الواقعة مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع يقينه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم . وروى عنه أيضا : ليس بالكفر الذى يذهبون إليه : رواه الحاكم فى مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ... يؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : فى الكفر الواقع فى أولى الثلاث : إنه ليس بالكفر الذى تذهبون إليه ...

---

(١) وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس : القرطبى ج ٦ ص ١٩٠ .

إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ، كفرا دون كفر . وقال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

(٦) وقال عطاء : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق رواه ابن جرير . وعن على بن الحسين قال : كفر ليس ككفر الشرك ، وظلم ليس كظلم الشرك ، وفسق ليس كفسق الشرك .. فكأنهم حملوا الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين[1] ..

(٧) وقيل : فيه إضمار ، أى من لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قال ابن عباس ومجاهد : فالآية عامة على هذا : وقال ابن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أى معتقدا ذلك مستحلا له ، فأما من يفعل ذلك وهو معتقد أنه يرتكب محرما فهو من فساق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . وقال عكرمة : قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ، ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية . وقال ابن عباس : ومن جحد ما أنزل الله فقد كفر ،ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق رواه ابن جرير ... وعلى هذا فالآية متروكة الظاهر ، فإن الحكم وإن كان شاملا لفعل القلب والجوارح . لكنه المراد به هنا عمل القلب وهو التصديق ، ولا نزاع فى كفر من لم يصدق بما أنزل الله تعالى ، وهذا الرأى وهو أن المراد بالآية من جحد حكم الله المنزل فى الكتاب هو اختيار الإمامين الجليلين ابن جرير الطبرى وفخر الدين الرازى ، وإن لم يرتضه ابن القيم حيث جعله تأويلا مرجوحا .

(٨) إن هذه الآية ونظيرتها نزلت ثلاثتها فى الكفار ممن بدل حكم الله كما جاء فى صحيح مسلم من حديث البراء ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطارى وعكرمة وعبيد الله والحسن البصرى وغيرهم ، نزلت فى أهل الكتاب ، وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال : الثلاث آيات التى فى المائدة ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ الآية ، ليس فى أهل الإسلام منها شيء ، هى فى الكفار ، وأخرج ابن حاتم عن عكرمة ، وابن جرير عن الضحاك نحو ذلك .

ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة : فلإنكارهم ذلك وصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم فى غير موضعه وصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين .

أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم فى الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حال تقتضى الكفر وتارة على أخرى تقتضى الظلم والفسق .

(٩) ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى اليهود خاصة فتكون مختصة بهم ، وبينه بعضهم بقوله :

(١) وهو كفر النعمة عند الاباضية : انظرها من ص ١٩٠ من تفسير القرطبى .

(ومن لم يحكم) من هؤلاء الذين سبق ذكرهم (بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . قال عبد الرزاق عن إبراهيم ولعله النخعى : نزلت الآيات فى بنى اسرائيل . رواه ابن جرير . وقال ابن عباس : فى خصوص بن قريظة والنضير ... وأخرج سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما أنزل الله : (فأولئك هم الكافرون) الظالمون الفاسقون ، فى اليهود خاصة . وقال الشعبى : هى فى اليهود خاصة ، واختاره النحاس[1] قال : ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها : أن اليهود قد ذكروا قبل هذا فى قوله (للذين هادوا) فعاد الضمير عليهم ، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك ... ألا ترى أن بعدها (وكتبنا عليهم) فهذا الضمير لليهود بالإجماع وأيضا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص . فإن قال قائل : (مَنْ) إذا كانت للمجازاة فهى عامة ، إلا أن يقع دليل على تخصيصها ، قيل له : (مَنْ) هنا بمعنى الذى ، مع ما ذكرناه من الأدلة ، والتقدير : واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... واختار هذا الرأى القرطبى[2] والطبرى . قال الطبرى : الأولى فى كفار أهل الكتاب ، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات نزلت فيهم وهم المعنيون بها ، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم ، فكونها خبرا عنهم أولى .

(١٠) وقال آخرون : بل نزلت هذه الآيات فى أهل الكتاب والمراد بها جميع الناس ، مسلموهم وكفارهم ، ونسب هذا القول إلى عمر وعلى رضى الله عنهما ، وهو قول إبراهيم والحسن ومسروق .

(١١) وقال بعضهم : عنى بالكافرين أهل الإسلام ، وبالظالمين اليهود ، وبالفاسقين النصارى ، وهو اختيار أبى بكر بن العربى قال : لأنه ظاهر الآيات .. وفى أحكام الجصاص (٤ – ٩٣) : الأولى بالمسلمين والثانية لليهود والثالثة للنصارى .

وعند الشعبى قال : نزلت (الكافرون) فى المسلمين ، و(الظالمون) فى اليهود ، و(الفاسقون) فى النصارى وعنه قال : هذه الآيات التى فى المائدة **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾** فينا أهل الإسلام .. **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾** قال فى اليهود .. **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾** قال فى النصارى) .. قال الألوسى بعد كلام الشعبى : ويلزم على هذا أن يكون المؤمنون أسوأ حالا من اليهود والنصارى إلا أنه قيل : إن الكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ ، والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أشعر بعتوه وتمرده فيه ، وكلام حذيفة يمكن أن يؤيد هذا الرأى .

(١٢) وقال الخوارج (وهم يحتجون بهذه الآية) : إنها تقضى فى أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافرا كذلك احتج الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر وغير مؤمن ، ووجه الاستدلال بها أن كلمة (مَنْ) فيها عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، فيدخل الفاسق المصدق أيضا ، لأنه غير حاكم وعامل بما أنزل الله .

---

(١) القرطبى : ج ٦ ص ١٩٠ .

(٢) جزء ٦ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

والحق الذى لا مراء فيه فى هذه الآية : وهو الرأى المؤيد المنصور : أن الآية عامة فى أهل الكتاب وغيرهم شاملة لليهود والنصارى والمسلمين وأن الحاكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وأن الكفر فيها هو الكفر المخرج عن الملة والأدلة والآثار الآتية تثبت ذلك وتوضحه :

- أن هذه الآية وإن نزلت فى اليهود حين أنكر واحد الرجم إلا أن القاعدة تقول : العبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
- قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم** ﴾ كلام أدخل فيه لفظ ﴿ **من** ﴾ فى معرض الشرط فيكون للعموم ، فهو يفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل كل من ولى الحكم يشمله ذلك ..
- إذا حكم على أهل الكتابين بالكفر والفسق والظلم إذا لم يحكموا بالتوراة والإنجيل فنحن المسلمين من باب أولى إذا لم نحكم بالقرآن ، على أن الصحيح أن الآيات تشمل أهل الكتاب وغيرهم .
- أخرج الحاكم وصححه وعبد الرزاق وابن جرير عن حذيفة أن الآيات الثلاث ذكرت عنده فقال رجل إن هذا فى بنى إسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الأخوة لكم بنى اسرائيل ،إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، كلا والله لتسلكن طريقهم قد الشراك[1] .
- ويروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات : أهى فى بنى إسرائيل ؟ قال : هى فيهم ، ولتسلكن سبيلهم حـذو النعل بالنعل[2] .
- قال ابن جرير عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال : من السحت ، فقالا : وفى الحكم ؟ قال : ذلك الكفر ، ثم تلا ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ونقل مثل ذلك عن على بن أبى طالب كما أخرجه عن ابن جميلة .
- وقال السدى : يقول الله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ فتركه عمدا أوجار اهم وهو يعلم فهو من الكافرين .
- قال القشيرى : عزى إلى الحسن والسدى أن من ارتشى وحكم بغير حكم الله فهو كافر .
- وعن الحسن : نزلت فى أهل الكتاب ، وهى علينا واجبة .
- وعن عبد الرزاق : عن إبراهيم - ولعله النخعى - نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل ، ورضى الله لهذه الأمة بها .
- قال الألوس : والوجه أن هذه كالخطاب عام لليهود وغيرهم وهو مخرج مخرج التغليظ ، واختلاف الأوصاف لاختلاف العبارات ، والمراد من الأخرين فيها الكفر أيضا عند بعض المحققين وذلك بحملها على الفسق والظلم الكاملين .
- قال أبو السعود (ومن لم يحكم بما أنزل الله) كائنا من كان دون المخاطبين خاصة ، فإنهم مندرجون فيه اندراجا أوليا ، إن لم يحكم بذلك مستهينا به منكراً له كما يقتضيه ما فعلوه عن تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينا ﴿ **فأولئك هم الكافرون** ﴾ لأستهانتهم به .

(١) القرطبى ج ٦ ص ١٩٠ . (٢) الشراك هو سير النعل الذى يمسك بالقدم وقد فسرتها الرواية التى بعدها .

والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير من الإضلال به أشد تحذير ... حيث علق الحكم فيه بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى ، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه ، لاسيما مع مباشرة ما نُهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه ، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .

- ويجاب على الرأى القائل : ليس مجرد عدم الحكم بما أنزل الله يكون كفرا ، فإن الكفر معناه الجحود والإنكار ، ويجاب عنه بأن الآية لم تقل « ومن لم يعتقد بما أنزل الله » . وقد رد هذا الرأى ابن القيم وأبطله إذ قال : فإن نفس جحوده كفر ، سواء أحكم أو لم يحكم .
- وحكى البغوى عن العلماء عموما أن الكفر عند الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ فى التأويل .
- ويمكن أن يجاب عن الرأى القائل : كفر دون كفر ، بما قاله الرازى : وهو ضعيف ، لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر فى الدين بأنه خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه .

قوله تعالى : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ : هذا منطق العدالة الإلٓهية والله هو الحكم العدل ، لا فرق عنده بين غنى وفقير ولا رفيع ووضيع ، ولا صغير وكبير ، ولا أمير وخفير ، فالكل أمام حكمه سواء . ولما كان الظلم فاشيا فى بنى إسرائيل أوجب الله عليهم أن يقوموا لله بالقسط فى تنفيذ أحكامه ، كما شرع لهم المساواة فى أخذ الحقوق ، وألزمهم بهذه الأحكام إلزاما لا يقبل نقدا ولا تغييرا . فإذا كان الله قد خاطب الجماعة المؤمنة من أمة محمد ﷺ بقوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى** ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾[1] .. إذا كان الله قد خاطب الأمة بهذا الخطاب وعبر بالقصاص لأنه لفظ القصاص ينبئ عن المساواة ، فإنه جلت قدرته كتب على بنى إسرائيل فى التوراة القصاص فى النفس وما دونها من الأعضاء والجروح ، وفى هذا تفصيل وفضل بيان لأمة محمد ﷺ إذ شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد ناسخ ، وقد بدأت الآية بالقصاص فى النفس إذ بها الحياة وبفقدها الموت ، وانتقل إلى العين إذ هى عضو الرؤية وبالرؤية تتجلى العظمة الإلٓهية فى الكون علوية وسفلية : قال تعالى : ﴿ الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾[2] . وانتقل من العين إلى الأنف لأنه عضو الجمال فى الوجه ، لذا لما أراد الله تعالى فى سياق الذم أن يذكر ذلك الكافر العنيد قال : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم ﴾[3] فشبه أنفه بأنف الفيل .

---

(١) الآيتان ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة . (٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الملك . (٣) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة (ن) .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الأذن وقد أودع الله فيها سر السمع ، والسمع نعمة عظمى ومنفذ من منافذ المعرفة ، لذا فى مجال المعرفة يقدم السمع على البصر : قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[١] ... ثم ينتقل النص الكريم إلى السن ، وللسن وظيفة صوتية وجمالية وهضمية .

وبعد ذلك تأتى الجروح وهى مختلفة باختلاف مواقعها ، لذا وجبت الدقة فى تنفيذ الحكم بشأنها ، ومن ثم فقد جاءت مقترنة بلفظ القصاص حتى تكون المساواة فيها مرعية ومأخوذة فى الاعتبار .

وبعد الحكم بالقصاص يفتح الله تعالى باب رحمته ، فيرغب ويدعو إلى العفو ، فهو الذى شرع القصاص ، وهو سبحانه الذى رغب فى العفو ، وفى القرآن الكريم آيات تصف المؤمنين بالقصاص مرة والعفو أخرى . فتقرأ قوله تعالى فى القصاص : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[٢] ونقرأ فى العفو : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾[٣] ونقرأ فى القصاص : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[٤] ونقرأ فى العفو : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾[٥] . ونقرأ فى القصاص : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[٦] . ونقرأ فى العفو : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾[٧] . ونقرأ فى القصاص : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾[٨] . ونقرأ فى العفو : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ﴾[٩] ونقرأ فى القصاص هنا : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس** ﴾ . ونقرأ فى العفو : ﴿ **فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ أى فمن تصدق بالعفو وعفا عن الجانى ، فذلك العفو كفارة لذنوب من عفا وهو المجنى عليه .

وفى هذا النص الكريم أحكام إليك بيانها :

- استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقرراً ولم ينسخ كما هو المشهور عند الجمهور .
- احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره أن رسول الله ﷺ كتب فى كتاب عمرو بن حزم « أن الرجل يقتل بالمرأة » ، وفى الحديث الآخر « المسلمون تتكافأ دماؤهم » .
- إذا ثبتت مشروعية القصاص بهذا النص فإن العفو وارد : عن أنس بن مالك أن الربيع عمة أنس كسرت ثنية جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا : فأتوا رسول الله ﷺ فقال : « القصاص » فقال أخوها أنس بن النضر يا رسول الله تكسر ثنية فلانة : قال فرضى القوم وعفَوْا وتركوا القصاص فقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . أخرجاه فى الصحيحين .

(١) الآية ٧٨ من سورة النحل .
(٢) الآية ٣٨ من سورة الشورى .
(٣) جزء من الاية ٣٧ من سورة الشورى .
(٤) (٥) أجزاء من الاية ٤٠ من سورة الشورى .
(٦) آية ٤١ من سورة الشورى .
(٧) آية ٤٣ من سورة الشورى .
(٨) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة .
(٩) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

- قوله تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم ، إذا كان عمدا فى النفس وما دون النفس ، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيها بينهم ، إذا كان عمدا فى النفس وما دون النفس ، (رواه ابن جرير وابن أبى حاتم) .
- الجراح تكون تارة فى مفصل فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح فى مفصل بل فى عظم فقال مالك رحمه الله فيه القصاص إلا فى الفخذ وشبهها لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحباه لا يجب القصاص فى شىء من العظام إلا فى السن .
- لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه ، فإن اقتص من قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شىء له ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد : أن رجلا طعن رجلا بقرن فى ركبته فجاء إلى النبى ﷺ فقال : أقدنى (أى اقتص لى) فقال : حتى تبرأ ، ثم جاء إليه فقال : أقدنى فأقاده ، فقال : يا رسول الله : عرجت فقال : « قد نهيتك فعصيتنى فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه .
- لو اقتص المجنى عليه من الجانى فمات من القصاص فلا شىء عليه عندما مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقال أبو حنيفة تجب الدية فى مال المقتص ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعى والحكم بن عتيبة وعثمان البستى يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقى فى ماله .
- قوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : من عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب . وقال الهيثم بن العريان النخعى : رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية فسألته عن قوله الله (فمن تصدق فهو كفارة له) قال يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به .

أما تفسير النبى ﷺ لتلك الآية فهو القول الفصل حيث قال صلوات ربى وسلامه عليه عنها : « هو الذى تكسر سنه أو تقطع يده أو يقط الشىء منه أو يجرح فى بدنه فيعفو عن ذلك » . قال : فيحط عنه قدر خطاياه فإن كان ربع الدية فربع خطاياه ، وإن كان الثلث فثلث خطاياه ، وإن كانت الدية حطت عند خطاياه كذلك » ... قال ابن جرير : دفع رجل من قريش رجلا من الأنصار فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصارى إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك ، قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يصاب بشىء من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » فقال الأنصارى : أنت سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، فخلى سبيل القرشى . وقال ﷺ « من تصدق بدم

فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت » .

قوله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ : جاء ذلك النص الكريم ختاما لتلك الآية لأن سياقها يدل على العدالة والمساواة ، والعدل وضع الشيء فى موضعه ، فمن وضعه فى غير موضعه فقد جافى العدالة ، فأصبح من الظالمين ، فمن لم يحكم بما أمر الله بالعدل فهو ظالم متجاوز لحدود الله ، والظلم مرتعه وخيم ، كما أنه ظلمات يوم القيامة ، والعدل أساس الملك . ودولة الباطل ساعة ، ودول الحق باقية حتى قيام الساعة : قال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[1] . وقال ﷺ : إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين.وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى بإرسال عيسى عليه السلام وأن قد قفى به على آثار أنبياء بنى إسرائيل ، أى أتبع رسالته برسالتهم ، ثم أخبر سبحانه أن المسيح بعث مصدقا ومؤمنا بالتوراة التى سبقته ، وأنه جل جلاله قد آتاه الإنجيل فيه هدى يهدى الحائرين إلى سبيل الرشاد ، ونور يخرج الضالين من الظلمات إلى طريق الله رب العالمين ..

وكما أن عيسى جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة عاملا بأحكامه ، فقد جاء الإنجيل مصدقا لأحكام التوراة مؤيدا لها ، كما جاء هدى وموعظة للمتقين ، وقد بعث الأنبياء فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، جاء سابقهم ليبشر بلاحقهم ، كما جاء اللاحق مكملا للسابق ، فهم دائما فى حركة بناء لا هدم فيها ، فهم دائما يتابعون الترق وليسوا فى حاجة إلى أن يقاوموا التدلى . قال سيدهم وخاتمهم ﷺ : « مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون : هلا وضعت تلك اللبنة ؟ فأنا تلكم اللبنة وأنا خاتم النبيين .

وإذا كانت التوراة قد اشتملت على الأحكام فإن الإنجيل قد اشتمل على الوصايا الروحية التى تخفف من غلواء اليهود وترقق من قسوة قلوبهم ، كما أحل الإنجيل بعض ما حرم الله على اليهود فى التوراة . وقد حكم الله تعالى للتوراة بالهدى والنور فقال : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ فقد حكم تعالى أيضا للإنجيل بالهدى والنور فقال ﴿ **وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور** ﴾ . وكما أوجب على أهل التوراة أن يحكموا بما فيها كذلك أوجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما فيه قال سبحانه : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ فإن هم تجاوزوا ذلك فقد خرجوا على أحكام الله فجزاؤهم أن يحكم عليهم بالفسق قال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

---

(١) الآية ١١٧ من سورة هود . (٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات : ﴿ **مهيمنا** ﴾ : رقيبا وحافظا لما تقدمه من الكتب وشاهدا عليه . ﴿ **شرعة** ﴾ : الشرعة فى اللغة الطريق الذى يتوصل به إلى الماء ، والطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة ، وفى لسان الشرع : ما شرعه الله لعباده من الدين وأحكامه . ﴿ ومنهاجا ﴾ : طريقا مستمرا واضحا. ﴿ **فاستبقوا** ﴾ : تسابقوا وسارعوا إلى الطاعات . ﴿ **أن يفتنوك** ﴾ : أى يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

المناسبة :

فيما مضى تكلم القرآن عن التوراة والإنجيل ، وما فيهما من نور وهدى وموعظة للمتقين أما القرآن الكريم والدستور المبين ، الذى نزل على الرسول الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين فها هو ذا .

قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ : المقصود بالكتاب هنا القرآن الكريم ، وإنما عبر عنه بالكتاب لأنه أجلى من الشمس فى ضحاها ، وأعظم وضوحا من القمر إذا تلاها ، وأشد ظهورا من النهار إذا جلاها ، فمن أعرض عما فيه تخبط فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

وفى أسلوب الخطاب ﴿ **إليك** ﴾ تشريف لصاحب الرسالة العصماء ، وقد وصف الله تعالى القرآن فى هذه الآية بثلاث صفات : ﴿ **بالحق** ﴾ ﴿ **مصدقا لما بين يديه** ﴾ ﴿ **ومهيمنا عليه** ﴾ .

أما كونه بالحق : فإنه تنزيل من حكيم حميد ، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾[1] وأما كونه مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة ، فذلك لأن التوراة

---

(١) جزء من الآية ١٠٥ من سورة الاسراء .

والإنجيل منزلان أيضا من قبل الله جلت قدرته وعظمت حكمته : قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[١] .

ثم وصف الله القرآن بكونه مهيمنا على الكتب السابقة ، أى شاملا وكافيا ورقيبا : قال عمر ذات يوم : يا رسول الله إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ قال الصادق المعصوم : أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ أى متحيرون لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى . قوله تعالى : ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ : هذا تفريغ وترتيب على ما مضى ، لما ثبت أن الكتاب نزل بالحق ، ومصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه ، وجب الحكم بما فيه : قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٢] . فالقرآن روح يحيى الموات ، ونور يبدد غياهب الظلمات ، قال على : يا رسول الله ما المخرج من الفتن ؟ قال الصادق المعصوم : ﴿ **عليكم بكتاب الله تبارك وتعالى** ﴾ ، وقال ﷺ ﴿ كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ : هذا تصريح فيه نهى عن اتباع الأهواء ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر : قال تعالى لنبيه داود : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[٤] وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى ، لذلك قص علينا القرآن الكريم قصة بلعام بن باعورا أحد أحبار بنى إسرائيل فقال : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[٥] وكيف يتبع الهوى من جاءه الحق ؟ وهل الإيمان إلا اتباع الحق : قال ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) . قوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾ : عقيدة الأنبياء كلهم واحدة قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٦] فكلهم دعا إلى وحدانية الألوهية والربوبية : قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى

---

(١) الآيات ٢٩ - ٣٠ من سورة الأحقاف .
(٢) الآيتان الأخيرتان من سورة الشورى .
(٣) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ٢٦ من سورة (ص) .
(٥) الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[١] . قال ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد) .

أما الشرائع والشعائر فقد تختلف فى الأوامر والنواهى حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية فيما يصلح أحوال العباد ، فلأتباع موسى شرعة ومنهاج ، كذلك أتباع المسيح ، تنتهى هذه الشرائع ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فقد جاءت رسالته خاتمة لما سبقها مهيمنة على كل الرسالات عالمية : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾[٢] . وقال سبحانه : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٣] . ففى القرآن نبأ من قبلنا ، وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا ، وهو بالفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الهادى إلى صراط مستقيم ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا ﴾[٤] من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ : فمشيئة الله سبحانه صالحة أن يجمعكم على كتاب واحد ونبى واحد ، ولكن اقتضت الحكمة العليا أن تتعدد الأنبياء والشرائع ، ليبلونا أينا أحسن عملا ، وليتبين الذين يطيعون والذين لا يمتثلون الأمر .

قوله جل شأنه : ﴿ **فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ : هذا أمر من الله جلت قدرته ، يريد به سبحانه أن يوجه عباده إلى ما يصلحهم دنيا وأخرى ، وذلك باستباقهم إلى الخيرات والمسارعة إليها والتنافس فيها ، وأول ما يجب الاستباق إليه الإيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ فهو خاتم الأنبياء الذى أمرنا أن نؤمن بكل الأنبياء : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[٥] . واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعا** ﴾ وهناك سينبئكم الله بما كنتم فيه تختلفون ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[٦] ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾ : هذا توكيد بوجوب الحكم بما أنزل الله ، والأمر يقتضى الوجوب ، إذ لم يصرفه عن الوجوب صارف ، فما بالك وقد جاء مقرراً ومؤكداً لما سبق قوله تعالى ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ وذلك بتغيير أى حكم من الأحكام المنزلة عليك ، كتغيير الرجم بالجلد . إلى غير ذلك ، فما عليك إلا أن تبلغ أحكام الله

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٢) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٣) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٤) من الآيتين ١ ، ٢ من سورة الجن .
(٥) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .
(٦) جزء من الآية ١٤٠ من سورة البقرة .
(٧) جزء من الآيات ٢١٦ من سورة البقرة .

كما أنزلت ، فإن تولوا وانصرفوا ولجوا فى طغيانهم يعمهون ﴿ **فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾ فما بالك لو أصابهم بذنوبهم كلها ، إذاً ما ترك عليها من دابة ﴿ **وإن كثيراً من الناس لفاسقون** ﴾ أى من هؤلاء الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾[١] وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾[٢] ومن على شاكلتهم ومن لف لفهم وذهب مذهبهم ودار فى فلكهم . قوله تعالى ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ أى أيعرضون عن حكم الله فيبغون حكم الجاهلية ، والجاهلية قد تكون فى العقيدة ، كما فى قوله تعالى ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله ﴾[٣] وقد تكون الجاهلية فى الحكم ، كمن حكم بغير ما أنزل الله ، وقد تكون الجاهلية فى الغريزة والشهوة ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[٤] وقد تكون الجاهلية حماقة كما فى قوله تعالى ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾[٥] وفى جاهلية الحكم يلقى القرآن الكريم باللائمة على هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، فتركوا الحكم بما أنزل الله ، وابتغوا قوانين وأحكاماً من هنا وهناك ، لا تصون عرضاً ولا تحفظ مالاً ولا نفسا ولا عقلاً ولا ديناً ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ لا أحد فالله هو الحكم العدل ﴿ لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾[٦] وهو الواحد الأحد لا يشرك فى حكمه أحدا سبحانه عز من قائل ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٧] .

النهى عن موالاة الكافرين

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **مرض** ﴾ : شك ونفاق . ﴿ **دائرة** ﴾ : ما يدور به الزمان من المصائب والإحن التى تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها . ﴿ **حبطت** ﴾ : بطلت أعمالهم .

---

(١) جزء من الآية ٤١ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .
(٢) جزء من الآية ٤٢ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .
(٣) جزء من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .
(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة الفتح .
(٦) جزء من الآية ٢٧ من سورة الكهف .
(٧) من الآيات ١٢٣ – ١٢٦ من سورة طه .

روى الرواة[١] : أنه جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثيراً عددهم وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى : إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من موالاة موالى ! فقال الرسول ﷺ لعبد الله بن أبى : « يا أبا الحباب : أرأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه » قال : إذن أقبل ، فنزلت الآية يا من اتصفتم بهذا الوصف وهو الإيمان بالله ورسوله سواء كان هذا باللسان فقط ولا إخلاص معه ، أو كان إيماناً صادقاً ومعه الإخلاص ، لا يليق بكم أن تفعلوا ما نهاكم الله عنه ، من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وتسرون إليهم بما أخفيتم وما أعلنتم ، وتتحابون إليهم وتصادقونهم ، إذ بعض اليهود أولياء بعض وبعض النصارى أولياء بعض ، والكل متفق على كلمة واحدة هى : بغضكم بغضاً شديداً ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، أى من جملتهم ، وحكمه حكمهم . وهذا تشديد على المنافقين الذين يتخذون صداقات ، ويرتبطون بصلات باليهود والنصارى وأعداء الدين ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ أنفسهم بموالاة الكفار أيا كان السبب فترى يا محمد وكذا كل من تصح منه الرؤية ، ترى الذين فى قلوبهم مرض الشك والنفاق كعبد الله بن أبى وأضرابه ، يسارعون فى موالاتهم ويرغبون فيها رغبة أكيدة خالصة للشيطان ، وانظر إلى تعبير القرآن ﴿ **يسارعون فيهم** ﴾ بدل يسارعون إلى موالاتهم ، للإشارة إلى أنهم منتقلون من بعض مراتبها إلى بعض ، فهم مستقرون فيها ، يقولون متعللين : ﴿ **نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾ تدور علينا من دوائر الدهر ودولة من دولة بأن ينقلب الأمر للكفار واليهود ، وتدول الدولة على المسلمين ، فنحتاج إليهم فلا يسعفوننا بالميرة والطعام ، أرأيت كيف لا يثق المنافقون بوعد الله ! وأن حزب الله هم المفلحون . ﴿ **عسى الله أن يأتى بالفتح** ﴾ وعسى فى القرآن وعد محتوم ، فإن الكريم متى أطمع أطعم ، وإذا وعد حقق ، فما ظنك بأكرم الأكرمين ؟ ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾[٢] والمراد بالفتح فتح مكة ، أو فتح من عنده شامل لتأسيس الدولة وانتظام شؤونها واستقرارها فى الوجود ﴿ **أو أمر من عنده** ﴾ يفضح حال المنافقين ويهتك سترهم ويرد كيدهم فى نحورهم ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، فيصبح أولئك المنافقون نادمين على ما أسروا وكتموا ، ويقول الذين آمنوا تعجبا وتعريضا وشماتة بهم ، مخاطبين اليهود ومشيرين إلى المنافقين الذى كانوا يوالونهم ، وقد بدت الأمور على غير ما كانوا يرجون ﴿ **أهؤلاء** ﴾ ﴿ **المنافقون** ﴾ ﴿ **الذين أقسموا بالله جَهد أيمانهم إنهم لمعكم** ﴾ أيها اليهود ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ التى كانوا ينافقون بها من صلاة وصوم ﴿ **فأصبحوا خاسرين** ﴾ دنيا وأخرى . **وهذا مرض خطير ينتشر فى الأمم الضعيفة المستعبدة ، ترى الكثير من أبنائها الذين فى قلوبهم ضعف وفى نفوسهم مرض يلجئون إلى الأعداء من الأجانب ، يتخذون عندهم يداً ، لأنهم ليسوا مؤمنين بالنصر ، وأن الدولة لهم ، يا قوم : أسمعوا وعوا واعتبروا ، فإنما يتذكر أولو الألباب .**

(١) تفسير القرطبى ٦ ص ٢١٦ .

(٢) جزء من الآيات : ١٢٠ من سورة المائدة .

المرتدون المحاربون لهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

المفردات : ﴿ **يرتد** ﴾ : الارتداد الخروج من الإسلام والدخول فى الكفر مطلقاً ، أو بسبب ترك ركن الزكاة أو غيره من أركان الإسلام جهاراً وعناداً . ﴿ **يحبهم** ﴾ : يجازيهم على أعمالهم أحسن الجزاء وأتمه ، ﴿ **يحبونه** ﴾ : يخلصون له فى العمل ويطيعونه فى كل أمر ونهى . ﴿ **أذلة** ﴾ : جمع ذليل بمعنى عاطفين عليهم . ﴿ **أعزة** ﴾ : جمع عزيز ، بمعنى أنهم متعالون عليهم . ﴿ **راكعون** ﴾ : خاشعون وخاضعون . ﴿ **حزب الله** ﴾ : الحزب الجماعة المجتمعة التى حزبها أمر من الأمور وألم بها أمر فى إتجاه خاص .

روى أنه قد ارتد عن الدين إحدى عشرة قبيلة : ثلاث أيام النبى ﷺ وسبع أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وجبلة بن الأيهم أيام عمر رضى الله عنه .

فالدين أرتدوا أيام النبى ﷺ .

١ - بنو مدلج ورئيسهم الأسود العنسى تنبأ باليمن وكان كاهناً وأهلكه الله على يد فيروز الديلمى .

٢ - بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ، تنبأ وأرسل كتاباً إلى النبى ﷺ وفيه أنه شريك ، وأن الأرض قسمان ، فكتب له النبى : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وقاتله أبو بكر رضى الله عنه والذى قتله وحشى قاتل حمزة .

٣ - بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، ارتد أيام النبى ﷺ وقاتله أبو بكر فى خلافته، ففر إلى الشام ثم أسلم وأحسن إسلامه . المرتدون أيام أبى بكر :

١ - غطفان وزعيمهم قرة بن سلمة . ٢ - فزارة قوم عيينة بن حصن .

٣ - بنو سليم قوم الفجاءة عبد ياليل ٤ - بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .

٥ - بعض بنى تميم وزعيمتهم سجاح بنت المنذر الكاهنة .

٦ - كندة قوم الأشعث بن قيس ٧ - بنو بكر بن وائل الحطم بن زيد .

وقد ارتد أيام عمر جبلة بن الأيهم من الغسانيين ، تنصر ولحق بالشام وله فى ذلك شعر وحوادث ، وسبب ارتداده أنه كان بمكة فطاف فوطئ إزاره رجل من بنى فزارة ، فلطمه جبلة فهشم

أنفه ، فاستعدى الفزارى عليه عمر رضى الله عنه ، فحكم إما بالعفو أو القصاص فقال جبلة : اتقتص منى وأنا ملك وهو سوقة .

الإسلام بجلاله وكماله وعقيدته وشريعته دين الفطرة ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١) .

قيل لأعرابى لم آمنت بمحمد فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته لم يأمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى . وإذا سألت أى مسلم يملك عقلاً راجحاً وقلباً صادقاً ويقيناً راسخاً عن نهجه فى الإسلام ، لقال لك بلسان الحال والمقال : المعرفة رأسمالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقه كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر إلى الله فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة . إن كل جملة من هذه الجمل درة تتألق فى تاج العلا والمجد المائل ، إنها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾(٢) إن بشاشة الإيمان إذا تمكنت من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذباً فراتا سلسبيلا ، ولا يغير هذه الفطرة إلا من كان فى قلبه مرض ، بحيث يدخل الإسلام دخول غير متمكن ﴿ يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾(٣) ومرضى القلوب فى الدنيا كثر يظهرون الايمان باللسان فيقولون ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض ﴾(٤) هؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ، سمّاعون للكذب ، لا يتجاوز الإيمان حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم ، إن هذا الخطاب العلوى يقول لهؤلاء : يا معشر من آمن من يرتد منكم عن دينه فيغيره ويبدل نعمة الله كفراً ، فإن الله غنى عن العالمين فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يبدد هذا الكون ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾(٥) إنه من يرتد عن دين الله فسوف يأتى الله بقوم يعرفون لله حقه وللدين قدره ، إنهم حزب الله الذين وصفهم بتلك الصفات .

(يحبهم ويحبونه)

(يجاهدون فى سبيل الله)

(ولا يخافون لومة لائم)

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الايتان ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة البقرة .

(٣) من الآية ١١ من سورة الحج .

(٤) من الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة .

(٥) الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة فاطر .

(الذين يقيمون الصلاة)

(ويؤتون الزكاة) (وهم راكعون)

إن هذه المبادىء تؤدى إلى نتيجة حتمية الوقوع ، حكم بها العليم القدير العلى العظيم فى قوله ﴿ **فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ كما حكم بها فى قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1] . إن هذا الحزب لا يغير مبدأ ولا ينحرف عن هدف ، لأن قائده صاحب الرسالة العصماء ﷺ الذى قالها فى سمع الزمان عالية مدوية ﴿ **والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه** ﴾ فقال له عمه أبو طالب يا ابن أخى قل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أبداً ، ثم أنشد .

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

إن قائد هذا الحزب : هو الذى وقف فى جموع المشركين يوم حنين يقول بقوة دونها قوة الجبال الرواسى : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب إن هذا الحزب فى صراع دائم مستمر مع حزب الشيطان الذى قال فيه المولى تبارك اسمه ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[2] فتأمل معى حزب الشيطان خاسراً أذل ، وحزب الرحمن هو حزب الله غالبٌ مفلح ﴿ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[3] إن حزب الله لا يوالى أعداء الله من اليهود والنصارى ، لأنه ملتزم بقوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾[4] ملتزم بقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾[5] إنه مستبصر بقول الله جل شأنه : ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾[6] وحسبك أن تعلم أن الله يحب هؤلاء القوم الذين هم حزب الله ، فما بالك بحب الله : إنه الرضا كله والسعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة ، إن الله يحبهم كما أنهم يحبونه ، قيل لأبى بكر

(١) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .

(٣) من الآيتين : ٨١ ، ٨٢ من سورة الأنعام .

(٤) من الآية ٥١ من سورة المائدة وقد سبق شرحها .

(٥) الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .

(٦) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

رضى الله عنه : بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ، ولو لا ربى ما عرفت ربى ، وكان بعضهم يقول فى مناجاته لله تعالى .

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

إنهم متواضعون فيما بينهم أذلة على المؤمنين ، لكنها ذلة فيها كرامة ونبل ، أعزة على الكافرين ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[١] إنهم المجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، عقدوا مع الله تعالى عقد بيع وشراء ، وسجل الله هذا العقد فى كتبهم السماوية وقال فى ذلك : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[٢] إنهم الشجعان الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، إنهم حزب الله : الله وليهم والرسول زعيمهم والمؤمنون جماعتهم ، ومن كان هذا شأنه التزم حدود الله ، فأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وهو راكع خاضع متواضع لله .

فبادر يا أخا الإسلام بالانضمام إلى حزب لله ، وقف عند حدوده والزم مبادئه ، لتكون من الذين حكم الله لهم بأنهم : ﴿ كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[٣] .

النهى عن موالاة أعداء الله

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الفتح .
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .
(٣) من الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ **هزوا** ﴾ : سخرية . ﴿ **ولعبا** ﴾ : اللعب واللعب ضد الجد . ﴿ **ناديتم إلى الصلاة** ﴾ : دعوتم لها بالأذان والإقامة . ﴿ **تنقمون** ﴾ : نقم ينقم أنكر وعاب عليه قولا أو عملا . ﴿ **مثوبة** ﴾ : جزاء وثوابا من ثاب إليه إذا رجع ولاشك أن الجزاء يرجع إلى صاحبه . ﴿ **طاغوت** ﴾ : كل ما عبد من دون الله وعبادته مجاز عن طاعته .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، وكذا المشركين ، لا تتخذوهم أولياء أبدا ، فإنهم يودون عنتكم ومشقتكم ، وقد ﴿ بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾[1] بعضهم أولياء بعض ، مع أن موالاتهم تغضب الله ورسوله . وهم الذين اتخذوا دينكم ومشاعره هزوا وسخرية ، ومظهراً من مظاهر اللعب والضحك ، ولا شيء أشق على النفس من استهزاء المعاند له وسخريته به وبرأيه وشعاره ، ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أيها الناس واخشوا عذابه ووعيده على الموالاة ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ . كرر الله نهى المؤمنين عن موالاة أعدائهم من الكفار ، تنفيرا لهم عنها وتسجيلا على الكفار فعلهم . وبعد أن أثبت الله استهزاءهم للدين على وجه العموم ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾[2] سجل عليهم استهزاءهم لنوع خاص هو عماد الدين وأساسه ، وهي الصلاة ، ﴿ **وإذا ناديتم إلى الصلاة** ﴾ بالأذان والإقامة اتخذوا هذه المناداة والصلاة ﴿ **هزوا ولعبا** ﴾ وما ذلك المستهجن القبيح : إلا لأنهم قوم لا عقل لهم يرشدهم ، ولا رأى يهديهم بل هم فى ضلالهم يعمهون ، إذ ما أروع هذا النداء الذى يهز القلوب ويجلوها ، ويطهر النفوس ويزكيها ، يا سبحان الله أهذا النداء يضحك ؟ الله أكبر . الله أكبر ، نعم : الله أكبر من كل شيء فى الوجود ، استفتاح ياله من استفتاح ، وانظر إلى إتباعه بالشهادتين لله ورسوله ، وهما ركنا الإيمان ودعامته ، وما أروع قول المؤذن حيَّ على الصلاة : أى أقبلوا عليها بجد ونشاط ونفس راضية مطمئنة ، وحى على الفلاح ، وهل هناك فلاح أكثر من هذا وأعلى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[3] الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبى رافع فى جماعة فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[4] فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : لا نؤمن بمن آمن به وروى أنهم قالوا لا نعلم شرا من دينكم فنزلت الآيات ﴾[5] .

(١) من الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية ١٤ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٤) من الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .
(٥) ورواه القرطبى ج ٦ ص ٢٣٣ .

قل يا أهل الكتاب ما تنقمون منا وما تعيبونه علينا إلا إيماننا بالله ورسله إيمانا صادقاً خالصاً ، مع وصف الله سبحانه وتعالى بكل كمال وتنزيه عن كل نقص ، وكذا الرسل جميعاً عليهم السلام لا نفرق بين أحد منهم ، مع وصفهم بما يليق بهم شرعاً ، وكذا ما أنزل عليهم من الكتب ﴿ **إن أكثركم لفاسقون** ﴾ وخارجون عن حدود العقل والرأى والدين الصحيح ، يا عجبا كل العجب أيجعل مناط المدح عنوان الذم ﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهم : ﴿ **هل أنبئكم** ﴾ أيها المستهزئون بديننا القائلون ﴿ **لا نعلم شراً من دينكم** ﴾ بما هو ﴿ **شر من ذلك** ﴾ الدين الذى تنقمون به علينا دين ﴿ **من لعنه الله وغضب عليه** ﴾ بسبب سوء فعله وهذا تبكيت لهم شديد بذكر جرائم آبائهم وجزائهم عليها إذ اللعن والغضب نهاية العقاب والمؤاخذة من الله لهم . ودين من ﴿ **جعل منهم القردة والخنازير** ﴾ ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾[1] ﴿ **أولئك شر مكانا وأضلّ عن سواء السبيل** ﴾ وكان التعبير بشر مع أن هذا الدين خير محض مجاراة لهم فى اعتقادهم ومشاكلة للفظهم ، وهاك سيئة أخرى تقتضى وحدها عدم الموالاة . ﴿ **وإذا جاءوكم** ﴾ وحضروا مجالسكم خصوصاً مجلس الرسول ﷺ ﴿ **قالوا آمنا** ﴾ باللسان فقط ، والحال أنهم دخلوا متلبسين بالكفر مؤزرين لا يفارقهم ﴿ **وهم قد خرجوا به** ﴾ والله أعلم بما يكتمون حين الدخول من النفاق ، وعند الخروج من العزم على الكيد والمكر ، وما ملئت به قلوبهم من الحسد والبغضاء لكم ، فاحذروهم ولا توالوهم ﴿ **وترى كثيرا منهم يسارعون** ﴾فى ارتكاب ﴿ **الإثم والعدوان** ﴾ ويقبلون عليهما راغبين فيهما بجد ونشاط ، ويقبلون على ﴿ **أكلهم السحت** ﴾ والدنيىء من المحرم تالله ﴿ **لبئس** ﴾ العمل عملهم وياضلال هؤلاء !! أما وجدوا من يرشدهم ؟ أما وجدوا من نيكر عليهم ﴿ **لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم** ﴾ والكذب والبهتان فى أمور الدين ﴿ **وأكلهم السحت** ﴾ تالله ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ هؤلاء الأحبار . ولعل سائلاً يقول لم يقال فى جانب الشعب ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ وفى جانب الأحبار والعلماء ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ والجواب : أن الفعل ما يصدر من الإنسان مطلقا ، فإن قصد كان عملا وإن صاحبه دوام ومرونة وإتقان ، كان صنعة وكان صاحبه صانعاً . وفاعل المعصية من الناس تدفعه شهوته ونفسه إليها ، وأما الذى ينهاه من الأحبار والعلماء بالطبع ، لا شهوة معه تدفعه إلى العمل ، ولا إلى عدم الإنكار ، كان أشد إثماً ، وأعظم جرماً من الفاعل نفسه روى ابن عباس (ما فى القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية) يريد أنها حجة على العلماء إذا هم قصروا فى الهداية والارشاد .

من سيئات اليهود التى تبعدهم من طريق السعادة فى الدارين

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ

(١) الآية : ٦٥ من سورة البقرة .

وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

المفردات : ﴿ **اليد** ﴾ : تطلق على الجارحة ، وتطلق مجازاً على النعمة وعلى العطاء[1] . ﴿ **مغلولة** ﴾ : ممسكة عن الإنفاق . ﴿ **غلت أيديهم** ﴾ : أمسكت عن الإنفاق والخير . ﴿ **مبسوطتان** ﴾ : المراد كثير العطاء . ﴿ **أقاموا التوراة** ﴾ : عملوا بما فيها على أتم وجه وأكمله وكذا الإنجيل . ﴿ **مقتصدة** ﴾ : معتدلة .

روى الطبرانى عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود ، قيل هو النباش بن قيس ، وقيل هو فنحاص كبير[2] بنى قينقاع ، قال للنبى ﷺ : إن ربك بخيل لا ينفق ! فأنزل الله هذه الآية . بعد أن عدد الله من سيئاتهم وسجل عليهم بعض أعمالهم الموروثة ختم بذكر سيئة من أفظع سيئاتهم : ألا وهى وصف الله سبحانه بما لا يتفق أبداً مع العقل ، ولا يقول به رجل من أهل الكتاب وقالت اليهود ، أى بعضهم : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ : وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل وعدم الجود ، ألا ترى إلى قوله سبحانه ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾[3] وقول النبى ﷺ ﴿ أطولكن يداً أسرعكن لحوقاً بى يوم القيامة ﴾[4] . والمراد بطول اليد الجود والكرم قال بعضهم هذا لما أصابتهم أزمة مالية ، ﴿ **غلت أيديهم** ﴾ وأمسكت عن الجود والخير ، فهم القوم البخلاء الأنانيون ، لعنهم الله بما قالوا ، فهو الكريم ويحب كل كريم ، و﴿ **يداه مبسوطتان** ﴾ للعطاء ، ﴿ **ينفق كيف يشاء** ﴾ على وفق الحكمة الإلهية ، فهو يعطى ويمنع ويقبض ، ويبسط لحكمة هو أعلم بها ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾[5] ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾[6] وتالله ﴿ **ليزيدن** ﴾ الذى ينزل عليك من الآيات البينات التى تكشف تسترهم ، وتطلعك على أعمالهم ونواياهم ، ليزيدنهم ذلك ﴿ **طغيانا** ﴾ وجحوداً وبطراً يا سبحان الله ﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ما كان سبباً فى الخير يكون عندهم سبباً فى الشر .

---

(١) والمقصود هنا أنهم يقصدون - خاسئين خاسرين فى قصدهم - أن نعم الله عليهم أقل مما يستحقون .

(٢) روى القرطبى بسنده عن عكرمة : ... قال هذا فنحاص بن عازوراء (لعنة الله) وأصحابه ، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد ﷺ قل ما لهم ، فقالوا : إن الله بخيل ، ويد الله مقبوضة عنا فى العطاء ١٠ . هـ ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٣) جزء من الآية : ٢٩ من سورة الاسراء .

(٤) أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن عائشة رضى الله عنها : قالت : قال رسول الله ﷺ : « أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا » قالت : فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا ، قالت : وكانت أطولنا يدا زينب (بنت جحش) لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق ، وفى طريق آخر قالت : فكنا إذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا فى الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ... فعرفنا حنئذ أن النبى ﷺ انما أراد طول اليد بالصدقة ... الاصابة (٤/ ٣١٤) وحياة الصحابة (٢/ ١٦٩) .

(٥) من الآية ٢٦ من سورة الرعد .

(٦) من الاية ٢٧ من سورة الشورى .

ولقد حكم عليهم بأن ألقى بينهم ﴿ **العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾[1] فلا يهمنك أمرهم ولا تغتر باتفاقهم فى فلسطين المنكودة ، **فهى سحابة صيف لهم** ، وتنبيه من الله لنا علنا نثوب إلى رشدنا ونرجع إلى ديننا . و﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب** ﴾ فى الخارج أو الداخل كإثارة الفتن وتشتيت الكلمة وتأليب العدو ، كلما فعلوا هذا أطفأ الله نارهم ، وأبطل عملهم ، وهم دائما ﴿ **يسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين** ﴾ وسيجازيهم على ذلك بأقسى أنواع العقاب ثم بعد ذلك وسعت رحمته كل شىء ، وفتح باب كرمه للتائبين الذين يقبلون عليه ، ولو كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ﴿ ولو **أن أهل الكتاب آمنوا** ﴾ بكتبهم وبالقرآن ولم يحرفوا ولم يركبوا رءوسهم ﴿ **واتقوا** ﴾ الله فى كل أعمالهم ﴿ **لكفرنا عنهم سيئاتهم** ﴾ التى اقترفوها ومحونا عنهم أوزارها ﴿ **ولأدخلناهم جنات النعيم** ﴾ ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل** ﴾ المنزلين من عند الله بنور التوحيد والهداية ، ولم يسمعوا لأحبارهم ومفترياتهم ، وآمنوا بما أنزل إليهم من ربهم لاسيما القرآن الكريم . وعملوا بما فيها على خير وجه وأتمه ، لبسط الله الرزق لهم وأنزل عليهم الخير والتوفيق ، وأكلوا من كل جانب وفى هذا إشارة إلى أن العمل الصالح مع الإيمان الكامل مدعاة لرضى الرب وسعة الرزق والسعادة فى الدنيا والآخرة ، مع سلوك الطرق المعروفة والنظم المألوفة فى عالم الاقتصاد ، ومن أهل الكتاب ، وكذا كل أمة فى الوجود - جماعة قليلة معتدلة فى الرأى ، والكثير الغالب منهم فاسقون وخارجون عن أصول الدين والعقل (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة) .

تبليغ الرسول للدين

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

المفردات : ﴿ **يعصمك** ﴾ : يحفظك مأخوذ من عصام القربة وهو ما يربط به فمها من خيط أو سير جلد . ﴿ **الصابئون** ﴾ : الخارجون عن الأديان كلها ، وقيل هم قوم عبدوا الملائكة ، وصلوا إلى غير القبلة .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ : أى آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس[2] فنزل جبريل فقال ﴿ **يا أيها**

---

(١) من الآية : ١٤ من سورة الحشر .
(٢) أصنافهم وقبائلهم المختلفة ، والموسم هو موسم الحج .

الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾ فقلت : أيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالات ربى ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجوا ولكم الجنة ، قال ﷺ فما بقى رجل ولا امرأة ولا صبى إلا يرمون على بالتراب والحجارة ويقولون كذاب صابئ فجاء عمه العباس فأنقذه منهم وطردهم عنه .

نادى الله سبحانه وتعالى حبيبه بوصف الرسالة التى تقتضى التبليغ التام الكامل : ﴿ **أيها الرسول بلغ** ﴾ جميع ﴿ **ما أنزل إليك من ربك** ﴾ لا تخش أحداً ولا يهمنك شىء أبداً ، **فإنك إن لم تبلغ الكل** ﴿ **فما بلغت رسالته** ﴾ فكأن كتمان شىء من الرسالة ولو إلى أجل هو كتمان الكل ، تفظيعاً لجرم الكتمان ، وكيف يكتم الرسل ﷺ شيئاً من الرسالة خوفاً أو خشية : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ أجمعين يعصمك من القتل والفناء ، أما العذاب والشدائد والآلام والحروب والإحن فهى الحوادث التى تصنع الرجال ، والبوتقة التى صهرت الناس ، فظهر المؤمن الصادق من المنافق الكاذب وكيف يكون رسول الله والله لا يعصمه ؟ وهو المعصوم : انظر كيف يضل المسيحيون حين يعتقدون صلب المسيح وقتله ؟ ولعل الحكمة فى هذه الآية أن يعرف الجميع أن النبى ﷺ رسول رب العالمين بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه لم يكتم شيئاً ولم يخص أحداً بشىء ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[1] إن ﴿ **الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ الذى يؤذونك ويعاندونك ﴿ **قل** ﴾ لهم ﴿ **يا أهل الكتاب** ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ **لستم على شىء** ﴾ يعتقد به من أمر الدين ، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين ﴿ **حتى تقيموا التوراة والإنجيل** ﴾ وإقامتها : العمل بكل ما فيها من التوحيد الخالص ، والبشارة بالنبى ﷺ وصفته ، وحتى تقيموا ﴿ **ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ على لسان محمد ﷺ ، وهو القرآن المصدق لما تقدمه من الكتب والمكمل للرسالات السابقة ، ونحن أيها المسلمون لسنا على شىء أبداً حتى تقيم القرآن ونعمل بأحكامه ونهتدى بهديه فى كل أمورنا وأقسم الله ﴿ **ليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك** ﴾ وهو القرآن ﴿ **طغيانا** ﴾ على طغيانهم ﴿ **وكفراً** ﴾ على كفرهم وذلك بسبب حسدهم الكامن ﴿ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾[2] . أما القليل منهم الذين يؤمنون بالله وبكتبه ، فلا يزيدهم القرآن إلا هدى ورشاداً وخيراً وإسعاداً . وإذا كان هذا شأن القرآن ، فلا يهمنك أمرهم و﴿ **فلا تأس على القوم الكافرين** ﴾ وهاك قانون عام وحكم شامل للجميع على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، ولا غرابة فهى الرسالة العامة ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾[3] ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ باللسان كالمنافقين ﴿ **والذين هادوا** ﴾ من أتباع موسى عليه السلام والذين صبئوا وخرجوا عن حدود الأديان ﴿ **والنصارى** ﴾ من أتباع المسيح عليه السلام ﴿ **من آمن** ﴾ منهم ﴿ **بالله** ﴾ ورسله ﴿ **واليوم الآخر** ﴾ إيمانا صادقاً ﴿ **وعمل** ﴾ عملاً ﴿ **صالحاً** ﴾ ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ أبداً من عذاب يوم القيامة ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ أبدا بل هم فى جنات النعيم على الأرائك ينظرون .

---

(١) من الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٢٨ من سورة سبأ .

العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ ، وكفى بالكفر داءً وكفى به جريمة وجناية ووباءً ، إن الله تعالى أطلق الكفر ولم يذكر متعلقه لأنهم كفروا بكل ما جاء به المرسلون ، كفروا بالوحدانية والأنبياء والبعث والحساب والجزاء ، إن مصيرهم خسران : ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله** ﴾ ومصيرهم ندم ، ونار الندم تتأجج فى الأضلاع ، ﴿ **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها** ﴾ أى يا ندامتنا أحضرى وتعالى على ما قصرنا فى أمور الدار الآخرة ، يقولون هذا وهم يحملون أوزارهم وذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم . ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[(١)] .

(ألا ساء ما يزرون) وبئس ما يحملون .

تزود من حيــــاتك للمعـــــاد وقــــــم لله واجمع خير زاد
ولا تركـــن إلى الدنيـــا كثيرا فإن المال يجمـــع للنفـــاد
أتـــرضى أن تكـــون رفيـــق قوم لهـــم زاد وأنـــت بغيـــر زاد

كان حاتم الأصم رضى الله عنه إذا راودته نفسه لتميل به إلى الهوى ذهب إلى مقبرة مهجورة ونام فيها ثم ينادى قائلاً : ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ ثم ينهض قائما ويقول : يا حاتم لقد رجعت فاعمل قبل أن تموت فيقال لك : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ . صدقت يا سيدى يا رسول الله إذ قلت : ﴿ والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ﴾ .

كل ابـن أنثى وإن طالت سلامتـه يوماً على آلـة حدبـــاء منقـــول
فإذا حملت إلى القبـــور جنـــازة فاعلـــم بأنك بعدهـــا محمـــول

قوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ . هذا بيان لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، فالدنيا لعب فى الصغر ولهو فى الكبر ، أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء وميت الغد يشيع ميت اليوم .

لا تركنـن إلى الدنيـــا ومـــا فيها فالموت لاشك يفنينـــا ويفـــنيها
واعمـل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والــــــرحمن منشيها
قصورهـا ذهب والمسك طيـــنتها والزعفــــــران حشيش نابت فيها

كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية .

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة العنكبوت .

﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ . أجننتم فلا تعقلون !!

دنياك ساعات سراع الزوال وإنما العقبى خلود المآل

فهل تبيع الخلد يا غافلا وتشترى دنيا المنى والضلال

تثبيت وتسلية

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

المفردات ﴿ **ليحزنك** ﴾ : الحزن ألم نفسى يكون عند فقد محبوب أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه . ﴿ **يجحدون** ﴾ : الجحود إنكار ما ثبت، فى القلب أو إثبات ما نفى فيه . ﴿ **نبأ** ﴾ : هو الخبر ذو الشأن العظيم . ﴿ **كبر** ﴾ : يقال كبر على فلان الأمر أى عظم عنده وشق عليه وقعه . ﴿ **إعراضهم** ﴾ : الإعراض التولى والانصراف عن الشيء رغبة عنه ، أو احتقاراً له . ﴿ **أن تبتغى** ﴾ : أن تطلب ما فى طلبه كلفة ومشقة من البغى وهو تجاوز الحد ويكون فى الخير والشر . ﴿ **نفقا** ﴾ : السرب فى الأرض وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج . ﴿ **سلماً** ﴾ : المرقاة من السلامة لأنه هو الذى يسلمك إلى مصعدك .

هذا تثبيت لرسول الله ﷺ وتسلية له عندما يشتد عليه الأذى من كلامهم وقولهم إنه ساحر كذاب إلى غير ذلك ، وحاشا رسول الله أن يكون كذلك والله تعالى يقول له : ﴿ **إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك** ﴾ فأنت الصادق الأمين ، ولكن الحقيقة أنهم يجحدون بآياتى فلا يكن فى صدرك حرج مما يقولون ، فلست بدعا من الرسل فقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على الأذى حتى أتاهم نصر الله ولا تبديل لكلماته سبحانه وتعالى . ﴿ **ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ ما ثبت الله به فؤادك ، إنك من المتوكلين على الله فسلم له الأمر فليس لك من الأمر شيء ، أتستطيع إن كان كبر عليك إعراضهم أن تطلب نفقاً فى باطن الأرض أو تصعد سلما إلى السماء وترقى فيها فتأتهم بآية ، ليس لك من الأمر شيء فالأمر كله لله ﴿ **فلا تكونن من الجاهلين** ﴾ وهذا تعريض بهم هم وتوبيخ لهم على جهلهم الذى تأصل فى نفوسهم ، أما أنت فقل لهم سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ، أنت عبدى ورسولى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين

وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[١] .

حقائق قرآنيـــة

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

تفسير المفردات : ﴿ **يستجيب** ﴾ استجاب الدعاء إذا لبّاه وقام بما دعاه إليه بالتدريج . ﴿ **يسمعون** ﴾ : أى سماع حق لا عناد فيه قال تعالى ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾[٢] . ﴿ **آية** ﴾ : خارق من خوارق العادات . ﴿ **قادر** ﴾ : لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض .

الناس فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فريق تتلى عليه آيات الله فيسمعها سماع قبول ، وينظر إليها نظرة اعتبار وتذكر ، نظرة خالية من الهوى والعناد والاستكبار ، وهؤلاء يستجيبون لما دعاهم الله ، فهم كالتربة الصالحة للإنبات تقبل الماء وتنبت الكلأ وفريق تتلى عليه الآيات فيظل متكبرا سادراً فى غلوائه ، لا ينظر ولا يعتبر ولا يسمع سماع قبول ، وهم موتى القلوب أبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون ، هؤلاء يترك أمرهم إلى الله فهو الذى يبعثهم بعد موتهم ، فيحاسبهم ويجازيهم ثم إليه يرجعون ، هو القادر على ذلك وحده فلا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إذ ليس فى استطاعتك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب .

وقال المشركون المعاندون بعد نزول الآيات تترى التى لو لم يكن فيها إلا القرآن لكفى قالوا : هلا نزل عليه آية من ربه كما اقترحنا . وقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾[٣] كيف تطلبون منى هذه الآيات وهل أنا إلا بشر ورسول وليس يقدر الرسول على إنزال آية من الآيات ، وإنما القادر هو الله فقط على إجابتكم لما تطلبون .

وقد مضت سنة الله فى الأمم أن إجابة المعاندين إلى ما طلبوا لم تكن سبباً لهدايتهم أبداً ، بل كانت سبباً فى عذابهم واستئصالهم ، فإنزال آية مما اقترحوا لا يكون خيراً لهم ، بل هو شر ، ولكن أكثرهم

(١) الآيتان ١٢٠ - ١٢٢ من سورة هود .
(٢) الآية ١٠ من سورة الملك .
(٣) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء .

لايعلمون ، وطلبهم تعجيز للنبى ﷺ لا للهداية ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾

من دلائل قدرة الله وكمال علمه

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ **دابّة** ﴾ : الدبيب . المشى الخفيف . والدابة كل ما يدب على الأرض من الحيوان . ﴿ **والطائر** ﴾ : كل ذى جناح يطير فى الهواء . ﴿ **أمم** ﴾ : جمع أمة ، وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين أو لغة أو صفة أو عمل

الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، ينزل الآيات حسب الحكمة والمصلحة ، وها هى ذى مظاهر القدرة ، وشمول العلم ، وكمال التدبير ، لا يوجد نوع من أنواع الدواب يدب على الأرض ، ولا نوع من أنواع الطير الذى يطير فى الجو ، إلا وهو أمم مماثلة لكم أيها الناس ، لهم أرزاق وآجال ونظام محكم وطبائع تتلاءم مع خلقتهم وتكوينهم ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وخص دواب الأرض بالذكر لأنها مرئية للكفار ، أماملكوت الله فى السموات ففيه ما لا يعلمه إلا الله وحده .

وهذه الآية توجه أنظارنا إلى البحث والدرس فى طبائع الحيوان ، والاستفادة من ذلك ، فقد خلق الله لنا جميع ما فى الأرض لننتفع منه ونسخره لمصلحتنا ، وما فرطنا فى الكتاب من شيء أبداً ، ولا قصرنا فى أى شيء أبداً .

وقال ابن عباس إن المراد بالكتاب هو أم الكتاب (وهو خلق غيبى سجل فيه كل ما كان وما سيكون على حسب السنن الإلهية) .

وقيل : الكتاب هنا هو علم الله المحيط بكل شيء ، شبه بالكتاب ثابتاً لا ينسى .

وقيل : هو القرآن ، ففى القرآن السياسة العامة الإسلامية من ناحية الاقتصاد والاجتماع والدين ، وفيه الأصول العامة الأخرى للدين كالسنة والقياس والإجماع والجزئيات ، ثم إلى ربهم يحشرون ، ويجازون على أعمالهم .

والذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على كمال القدرة ، وتمام العلم والحكمة ، صم لا يسمعون دعوة

الحق والهدى سماع قبول ، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم يتخبطون فى الظلمات ظلمات الجهل والكفر والعادات القبيحة ، من يشأ الله يخذله ويضله ولا يلطف به ، لأنه ليس من أهل اللطف ، حيث ثبت فى علمه القديم أنه أهل لما هو فيه من شقاء وعذاب ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ، لأنه أهل لذلك فى علمه ، وهكذا كانت الحكمة فيما اختاره الله أزلا وفق علمه ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بعباده ، بصير بخلقه . إلى الله وحده يلجأ العبد فى الشدائد ، مع ضرب الأمثال بالأمم السابقة .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

المفردات : ﴿ **أرأيتكم** ﴾ : أسلوب عربى يفيد التعجب وأن ما بعده غريب عن الصواب والمراد أخبرونى . ﴿ **فيكشف** ﴾ : أى يزيل ما تدعونه إلى كشفه . ﴿ **بالبأساء** ﴾ : الشدة والعذاب والقوة ، وتطلق البأساء على الحرب والمشقة . ﴿ **الضراء** ﴾ : من الضر ضد النفع . ﴿ **يتضرعون** ﴾ : التضرع إظهار الضراعة والخضوع بتكلف . ﴿ **مبلسون** ﴾ : متحسرون يائسون من النجاة . ﴿ **دابر القوم** ﴾ : آخرهم الذى يكون فى أدبارهم .

يا أيها الرسول قل لأولئك المشركين : أخبرونى إن أتاكم عذاب الله الذى نزل بأمثالكم من الأمم السابقة كالخسف والريح الصرصر والغرق ، أو أتتكم الساعة وهولها ، والقيامة وما فيها ، أخبرونى إن حصل هذا أغير الله تدعون ؟ لينجيكم من هذا العذاب وهوله . إن كنتم صادقين فى دعوى الإلوهية لهؤلاء ، والأصنام الذى زعمتم أنهم فيكم شركاء ولكم شفعاء ، والسؤال للتبكيت والإلزام بل (إضراب لإبطال ما تقدم) إياه وحده تدعون ، وله وحده تتجهون ، وبه وحده تستعينون ، حتى يكشف عنكم ما ألمّ بكم من ضر ، أو مسكم من شدة ، يكشف ما تدعون إليه إن شاء كشفه وكان فيه حكمة ، وأنتم تنسون ما تشركون ، وتتركون آلهتكم ، ولا تذكرون فى ذلك الوقت إلا الله : ﴿ فإذا ركبوا فى

الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[١] .

وذلك أن الإنسان أودع فى فطرته توحيده عز اسمه ، وأما الشرك فشىء عارض للإنسان بالتقليد ، شاغل للذهن بالفساد وقت الرخاء ، حتى إذا جد الجد دعوا الله مخلصين له الدين ، وضل عنهم ماكانوا يعبدون . ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾ [٢] .

ثم أخذ القرآن يضرب الأمثال بالأمم السابقة فقال : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين ولكن أممهم عصوا وبغوا ﴿ فأخذناهم بالبأساء ﴾ والشدائد ﴿ والضراء ﴾ والمهالك التى تجعل المغرور يراجع نفسه ويفكر فى أمره ولذا يقول الله ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ ويلجئون ، ومع هذا فكثير من الناس لا تنفعهم هذه الزواجر ولا تروعهم هذه الشدائد .

فهلا تضرعوا حين جاءهم بأسنا وكانوا خاشعين تائبين ، ولكن أنىَّ لهم هذا وقد قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، فلم تؤثر فيهم النذر ، ولم تنفعهم العبر ، وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون . وبئس ماكانوا يصنعون

فلما نسوا ماذكروا به وأعرضوا عما أنذروا به فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ناحية ، ومتعناهم بالحياة الدنيا ، استدراجاً وإملاء ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[٣]

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بلا إنذار ولا استئذان ، أخذناهم بغتة فإذا هم متحسرون يائسون من رحمة الله ، فقطع دابر القوم عن آخرهم ، حتى لم يبق منهم أحد والحمد لله رب العالمين ، وفى هذا إشارة إلى أن إبادة القوم المفسدين نعمة من الله رب العالمين ، وأن فى الضراء والسراء عبرة وعظة للناس ، وإنما يتذكر أولو الألباب .

من أدلة التوحيد

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

---

(١) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٣) الآية ٢٤ من سورة لقمان .

المفردات : ﴿ **نصّرف الآيات** ﴾ : نقلبها ونكررها على وجوه مختلفة . ﴿ **يصدفون** ﴾ : يعرضون عن ذلك ﴿ **يمسهم** ﴾ : المس اللمس باليد بما يسيء غالباً من ضر أو شد .

قل لهم يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبرونى ماذا أنتم فاعلون إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم ، إذ هو الذى وهب لكم السمع والبصر والفؤاد ، وإذا سلبها منكم عدتم صماً وعمياً لا تسمعون قولاً ، ولا تبصرون طريقاً ، ولا تعقلون نفعاً ولا ضرراً ، ولا حقا ولا باطلا ، ماذا تفعلون مع آلهتكم التى تدعونهم وترجون شفاعتهم ، ولو فعل الله بكم ذلك من إله غير الله يأتيكم بهذا ؟ لا إله إلا الله وحده هو الذى يقدر على ذلك ، ولو كان ما اتخذتموه آلهة تنفع أو تضر لردت عليكم هذا ، وإن كنتم تعلمون بلا شك أنها لا تقدر على شيء أصلا ، بل إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فلماذا تدعونهم ؟

والدعاء عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله وحده القهار ، واهب الوجود ، الحق المعبود سبحانه وتعالى ، انظر يا من يتأتى منه النظر كيف يصرف الله القول ويكرره بألوان مختلفة ، وعلى أساليب متعددة فى غاية الوضوح والبيان ، ثم هم بعد ذلك يعرضون ويصدفون عن النظر إليها بعين بريئة ، خالية من حجب التقليد وغطاء العصبية وداء الحسد .

قل لهم : أخبرونى إن أتاكم العذاب من الله كما أتى لمن قبلكم من المكذبين الضالين عذاب الخسف والاستئصال والهلاك ، وأتاكم هذا العذاب بغتة بلا مقدمات ، أو أتاكم العذاب جهرة وعيانا بمقدماته وأنتم تنظرونه .

أخبرونى ماذا أنتم فاعلون ؟ هل يهلك بهذا إلا القوم الظالمون ، الذين ظلموا أنفسهم بسلوكهم طريق الشرك والباطل .

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين من آمن بالثواب ، ومنذرين من عصى بصارم العذاب ، ولا عليهم شيء بعد هذا أبدا ، سواء عليهم آمن الناس أم كفروا : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾[1] أما الله سبحانه وتعالى فهو المجازى ، فمن آمن وأصلح نفسه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[2] وهم فى الدنيا متدرعون بسلاح الإيمان والصبر ، ودرع التقوى والشكر ، إن مسهم خير شكروا ، أو ضر صبروا ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[3]

ومن كذب وتولى ، وأعرض عن ربه وغوى ، فإنه يمسه العذاب ، ويصيبه فى الدنيا والآخرة جزاء كفره وفساده .

وإن أصابه خير فى الدنيا فمتاع قليل ، ثم يضطره الله إلى عذاب النار وبئس المصير .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الحديد .

مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتبعات الرسالة

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **خزائن** ﴾ :جمع خزانة وهى ما يخزن فيه الشىء ويحفظ ، والمراد القسم بين الخلق وأرزاقهم . ﴿ **الغيب** ﴾ : ما غاب عن جميع الخلق واستأثر الله بعلمه... ﴿ **الأعمى والبصير** ﴾ : المراد بهما الضال والمهتدى .. ﴿ **الولى** ﴾ : الناصر .. ﴿ **ولا تطرد** ﴾ : الطرد الإبعاد .. ﴿ **بالغداة** ﴾ : الغداة والغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .. ﴿ **العشى** ﴾ : آخر النهار والمراد جميع الأوقات ﴿ **فتنّا** ﴾ : ابتلينا واختبرنا .. ﴿ **من الله عليهم** ﴾ : أنعم الله عليهم .

وهكذا يبين الكتاب العزيز حقيقة النبوة : إنها البشرية فى أسمى معانيها ، وأرق مبانيها . قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[١]. وجاء فى سورة هود حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين ﴾[٢] .

وفى سورة الأنعام يخاطب الله تعالى نبيه الكريم فيقول : ﴿ **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله** ﴾ أى لا أملك خزائن الأرزاق ، إنما الأمر كله لله اختص سبحانه وتعالى بملكية الأشياء كلها ، فهو العليم بشئون عباده القدير ، على تصريفهـا ، الحكيم فى تقسيمها ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً ﴾[٣].

كما أنى لا أعلم الغيب الذى هو من خصائص الإلوهية ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف . (٢) الآية ٣١ من سورة هود . (٣) الآية ١٠٠ من سورة الإسراء .

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾[١].

﴿ قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيّان يُبعثون ﴾[٢] إن هذا هو منطق الحق المبين وتلك هى العقيدة الصحيحة المستقيمة السليمة ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ماشاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[٣].

﴿ **ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ وهذا تقرير وإخبار عن حقيقة الأنبياء ، إنهم بشر أوحى الله إليهم بالرسالة لأن طبيعة الملائكة لاتتكيف مع حياة البشر ، فالملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال اللطيفة ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا . قال ﷺ : ﴿ أطّت السماء أطًّا ، وحُقَّ لها أن تئط ، مامن موضع قدم فى السماء إلاوفيه ملك قائم أوراكع أو ساجد لله ﴾[٤]. وقد قال سبحانه وتعالى عنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[٥]. وقال عنهم ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٦].

وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يكون الأنبياء بشراً ليقفوا على مشاكل البشر ، ويعيشوا معهم ليلهم ونهارهم ويأكلوا ويشربوا ويتزوجوا ويتناسلوا ،وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى افتراءات أهل الباطل الذين قالوا للأنبياء : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾[٧]. وقال على لسان رسوله ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلٰهكم إلٰه واحد ﴾[٨].

فليست البشرية طعنا فى الرسالة مادامت قد اتصفت بصفات الكمال البشرى . فالأنبياء قد اتصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، وأحاطهم الله بالعصمة ، فحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأىّ أمر قد نهى الله عنه . وقد ردَّ الله تعالى على هؤلاء المنكرين فقال : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولاً ﴾[٩].

قوله تعالى : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ : هذا التزام بمنهج السماء لا يحيد عنه الأنبياء جاء فى

---

(١) الآيات ٢٦ – ٢٨ من سورة الجن .

(٢) الآية ٦٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد (٩) . وابن ماجه فى الزهد (١٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٣) .

(٥) الآية ٢٠ من سورة الأنبياء .

(٦) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية ١١ من سورة إبراهيم .

(٨) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٩) الآية ٩٥ من سورة الإسراء .

الحديث القدسى الجليل : (صدق عبدى فيما يبلغ عنى) .

والصدق فى الأنبياء صفة أصيلة وقاعدة قوية وجليلة . قال تعالى فى حق خاتم الأنبياء : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[١]. وقال تعالى : ﴿ وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾ : ليس العمى والبصر هنا بالمعنى الحسى إنما المقصود بهما الضلالة والهدى . قال تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[٣]. وقال تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمَنْ هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٤]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾[٥].

ولما كُفَّ بصر عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال :

إن أذهب الله من عينى نورهما ... ففى فؤادى وعقلى منهما نور
عقلى ذكى وقلبى ماحوى دخلا ... وفى فمى صارم كالسيف مشهور

وإنما يعبر عن الضلال بالعمى لما فيه من حيرة . وقد نعى الله تعالى على هؤلاء ماهم فيه من حيرة . قال تعالى : ﴿ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾[٦].

إن أمرهم لعجيب وأى عجب إذ كيف يحارون وقد أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأنزل لهم كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ووهبهم عقولا ليميزوا بها الظلمات من النور أفلايتفكرون ؟ أفلايتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ أفلايبصرون ؟ أفلايعقلون ؟ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون** ﴾ : المقصود بالإنذار الإخبار بما يبعث الخشية والخوف من عقاب الله ، فمن خاف سلم ومن ذاق حلاوة الإيمان عرف ، ومن حُرِم انحرف . والإنذار بالقرآن خير إنذار ، ثم من هؤلاء الذين يُنْذَرون ؟ إنهم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . قال تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾[٧]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ وما يدريك لعلَّ الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾[٨].

---

(١) الآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة الحاقة .
(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة النجم .
(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج .
(٤) الآية ١٩ من سورة الرعد .
(٥) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ٧١ من سورة الأنعام .
(٧) الآيات ٤٥ من سورة النازعات .
(٨) الآية ١٨ من سورة الشورى .

وحال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والوعد والوعيد ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾(١).

إن هؤلاء الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم وليٌّ ولاشفيع غير الله ، فهم إذااستعاذوا استعاذوا بالله وإذا سألوا سألوا الله ، وإذا استعانوا استعانوا بالله ، وإذا توكلوا توكلوا على الله . فليس لهم سوى الله لذلك يقولونها بصدق ووفاء ﴿ إيَّاك نعبد وإياك نستعين ﴾(٢) .

يارب حبك فى دمى وكيانى ... نور أغرُّ يذوب فى وجدانى
أنا لا أُضام وفى رحابك عصمتى ... أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

إنهم جددوا السفينة لأن البحر عميق ، وأكثروا الزاد لأن السفر طويل ، وأخلصوا العمل لأن الناقد بصير ، وخففوا الحمل لأن العقبة كئود ، وصاموا عن الدنيا وأفطروا على الموت ، وأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

أنذرهم بالقرآن لعلهم يتقون التقوى محلها الصدر وليس هناك سلاح أقوى من التقوى .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى :﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾ (٣)

روى أحمد وابن جرير والطبرانى فى جماعة آخرين عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يامحمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . فأنزل الله فيهم ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا** ﴾ **إلى قوله تعالى** ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾

عندما تقاس القيم بالماديات فقد اختلَّت معاييرها ، وعندما توزن المبادىء بالدرهم والدينار فقد اهتزت مقاييسها ، ومن ثَمَّ فإن الميزان الذى وزن به الإسلام القيم كان أدق من ميزان الذهب ، إنه ميزان التقوى : ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾(٤).

ليس الغنى مع سوء الأخلاق شرفا ، وليس الفقر مع الأخلاق عيبا : ﴿ مر رجل غنى على رسول الله

(١) الآيات ٥٧ — ٦١ من سورة « المؤمنون » .
(٢) الآية ٤ من سورة الفاتحة .
(٣) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

ﷺ فقال الرسول لأصحابه : ماتقولون فى هذا ؟ قالوا : يارسول الله : هو حريٌّ إذا قال أن يستمع له ، وإذا خطب أن يُزوج وإذا شفع أن يُشفع ثم مرَّ رجل فقير فقال الرسول لأصحابه : وما تقولون فى هذا ؟ قالوا : يارسول الله هو حريٌّ إذاقال أن لا يُسمع له ، وإذا خطب ألا يُزوج ، وإذا شفع ألا يُشفع فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده إن هذا الفقير خير من ملء الأرض مثل هذا الغنى ﴾[١].

لقد قالوا لرسول الله ﷺ : إن أردتنا أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من مجلسك ، فجاء الجواب من قبل الحق جلَّ جلاله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبع هواه وكان أمره فُرطاً ﴾[٢]. فما كان من رسول الله صلوات ربى وسلامه عليه إلا أن بسط لهم رداءه وأجلسهم عليه وقال لهم : مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا .

لقد كان بلال عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، وكان يسومه سوء العذاب فاشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأعتقه ، فكان عمر رضى الله عنه إذا لقى بلالاً قال : ﴿ بلال سيدنا وأعتقه سيدنا ﴾[٣].

فإذا مااختلت موازين الناس واهتزت القيم فى أنفسهم قاسوا الأمور بمقياس المادة فصارت كل سيئة للغنى فى نظر الناس حسنة ، وكل حسنة للفقير فى نظر الناس سيئة . فالغنى إذا كان بخيلا قالوا إنه متزن ، وإذا كان أبكم قالوا إنه عاقل ، وإذا كان جبانا قالوا إنه رزين .. والفقير إذا كان كريما قالوا إنه متلاف وإذا كان فصيحا قالوا إنه ثرثار ، وإذا كان شجاعا قالوا إنه متهور ..

وهكذا الدنيا إذا أقبلت على إنسان خلعت عليه محاسن غيره ، فإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه ، وإذا كانت الرياح مواتية باض الحمام على الوتد فإذا صارت عاصفة مدمرة بال الحمار على الأسد .

يمشى الفقير وكل شىء ضده	والناس تغلق دونها أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب	ويرى العداوة لايرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى	حنت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيرا ماشيا	نبحت عليه وكشَّرت أنيابها

لقد جاء الإسلام لبنا خالصا سائغا للشاربين فسوى فى الحقوق والواجبات بين السوقة والملوك فالناس من جهة التصوير أكفاء ، لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب .. قيل لسلمان الفارسى رضى الله عنه : ابن من أنت ياسلمان ؟ فقال : (أنا ابن الإسلام)[٤] نعم ياسيدى :

لعمرك ماالإنسان إلا ابن دينه	فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

(١) أخرجه البخارى فى النكاح (١٥) وفى الرقاق (١٦) . وابن ماجه فى الزهد (٥) . (٢) الآية ٢٨ من سورة الكهف .
(٣) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى (٢٣) . (٤) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٢٨) .

فقــد رفــع الإســلام سلمان فارس   وقــد حُط بالشــرك النسـيب أبو لهب

قيل لبلال بن رباح رضى الله عنه : يابلال من أبوك ؟ فقال : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة ..

هذا هو الإسلام يحترم أهل التقوى ويجل أهل الصلاح . قال ﷺ : (من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن أصبح وهمه الدنيا فرَّق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له ﴾[1] .

عش راضيــا واترك دواعــى الألــم   واعــدل مــع الظالم مهمــا ظـلـم
نهاية الدنيا فناء فعش   فيهاكريما واعتبرها عدم

إن هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى أول النهار وآخره : والمراد فى كل وقت سواء أكان المقصود بهذا الدعاء صلاة أو ذكراً أو مطلق العبادة فإنهم لا يبتغون من وراء ذلك ولا يريدون إلا وجه الله﴿ **ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء** ﴾ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[3] ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾[4].

لقد قالوا لنبى الله نوح عليه السلام : ﴿ ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾[5]. وقالوا له :﴿ **أنؤمن لك واتبعك الأرذلـون** ﴾[6] فما كان جوابه إلا أن قال لهم : ﴿ وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾[7].

قال تعالى : ﴿ **فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾ : وهذا تعريض بأهل الجاهلية الذين احتقروا الضعفاء وغمطوهم حقهم وقال قائلهم :

ونشرب إن وردنا المــاء صفــواً   ويشرب غـيرنـا كدرا وطينــا

وحاشا رسول الله أن يطرد الضعفاء فهو حبيبهم الذى قال :(طوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة ﴾ . هو الأمى الذى علَّم المتعلمين واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب البائسين ، والفقير الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط إلى شاطىء النجاة ومرفأ المفلحين . جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، ومن عُبَّاد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم .

إن الله تعالى جعل هذه الدنيا دار ابتلاء ليختبر الأقوياء بالضعفاء والأغنياء بالفقراء ولو شاء ربكم لجعل الناس أمة واحدة . ولقد صدق الله تعالى وهو يقول : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[8]. وإذ يقول :

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) .
(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٨ من سورة المدثر .
(٤) الآية ٢١ من سورة الطور .
(٥) الآية ٢٧ من سورة هود .
(٦) الآية ١١١ من سورة الشعراء .
(٧) الآيات ١٢ – ١٥ من سورة الشعراء .
(٨) الآية ٢ من سورة الملك .

﴿ وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ﴾[١] أى اختبرنا بعضهم ببعض وامتحناهم . قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون . وكان ربك بصيرا ﴾[٢]. ثم يبين تعالى الحكمة البالغة فى قوله : ﴿ **أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا** ﴾ أى أفَضَّلَهم علينا وهم فقراء ونحن أغنياء ؟ فيأتى الجواب الصحيح والرد الصريح : ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ . ثم يأتى البيان فى آية أخرى ليكون نوراً على نور : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون.ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسرراً عليها يتكئون . وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾[٣]

مرحبا بالمؤمنين

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ : السلام السلامة من العيوب والآفات ،وهو الأمان والتحية والقبول ، وهو من أسمائه سبحانه وتعالى . ﴿ **كتب** ﴾ : فرض وأوجب ، ﴿ **بجهالة** ﴾ : الجهالة السفه والخفة التى تقابل الحكمة والعقل ، ﴿ **ولتستبين** ﴾ : تتضح وتظهر .

وهذا مزيد تكريم من الله الكريم لأهل الإيمان والتقى :(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) والسلام تحية الإسلام وقد حيا الله تعالى نبيه بالسلام فقال : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) . فلم يكن رد النبى على ربه : السلام عليك يا الله لأن الله هو السلام إنما جاء الرد يفيض رحمة ووفاءً ويشع نوراً وبهاء : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : إنه لم ينس إخوانه الأنبياء عندما قال : السلام علينا ، كما لم ينس أتباع الأنبياء من الصالحين ، ولا عجب فهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة . لما سمع أعرابيا يقول : (اللهم ارحمنى ومحمداً ولا ترحم أحداً سوانا . قال له ياأعرابى لقد حجَّرت واسعا)[٤] .

إن السلام هو تحية الله للمؤمنين ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما ﴾[٥] والجنة دار

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٣) الآيات ٣٢ – ٣٥ من سورة الزخرف .
(٤) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) .
(٥) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

السلام . قال تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[١]. وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٢]. وليلة القدر سلام هى حتى مطلع الفجر . وقد أُمِر النبى ﷺ إذا جاءه هؤلاء المؤمنون أن يحييهم بالسلام .

قوله تعالى : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ هذا فضل من الله لا يدانيه فضل ، ونعمة لا يُلحق بها ولا يُشق لها غبار . فشعاع من رحمة الله تطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبه تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، فيا إلهى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الآثم

قوله تعالى : ﴿ **كتب ربكم على نفسه** ﴾ أى أن ذلك بمحض فضله ، لم يلزمه به أحد . فهو الواحد القهار الفاعل المختار . فيامن كتبت على نفسك الرحمة :

أدعوك ربِّ كما أمرت تضرعا ... فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضا ... وجميل عفوك ثم إنى مسلم

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى)[٣].

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتابا من تحت العرش إن رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقا لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم عتقاء الله ﴾[٤].

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن سليمان عن أبى عثمان النهدى عن سلمان فى قوله ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ قال إنا نجد فى التوراة عطفتين أن الله خلق السماوات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة قال فبها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتباذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تنج البقرة وبها تثغو الشاة وبها تتتابع الحيتان فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع .

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٤ من سورة الرعد .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة (١٣) .
(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢ ، ٣) . وأبو داود فى الجهاد (١٢٦) .

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل (أتدرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) ثم قال ﴿ أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم ﴾[١]. رواه الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ **أنه من عمل منكم سوءا بجهالة** ﴾ : قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل . والجهالة هى السفه وخفة العقل . فالعاقل هو الذى يوظف عقله فيما خلقه الله له فيميز الخبيث من الطيب ، وعجبت لامرئ يقول فيه القائل :

تعصى الإلٰه وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وما أعظم رحمتك يا إلٰهى : لا تقنط أحدا من رحمتك فأهل ذكرك أهل عبادتك وأهل طاعتك أهل محبتك ، وأهل شكرك أهل زيادتك ، وأصحاب المعاصى لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنت طبيبهم . أنت حبيبهم لأنك تحب التوابين وتحب المتطهرين . وأنت طبيبهم تبتليهم بالشدائد لتطهرهم من الذنوب والخطايا ، وأنت أرأف بعبادك من الأم بولدها . إذا قال العبد : يارب قد أخطأت ، قلت له يا عبدى وأنا قد سترت فإذا قال يارب قد تبت ، قلت له : وأنا قد غفرت . بابك يقبل المطرودين ويعفو عن المذنبين . تبسط يدك بالليل ليتوب مسيء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل .

أنت الذى تهب الكثير وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

التوبة عزم وإقلاع وندم وأداء للفرائض ، وتصميم على عدم العود ، والإصلاح بناء لكل قيمة كريمة وإيجابيات فى الخير . فمن كان شأنه كذلك من التوبة والإصلاح فقد استحق مغفرة الله ورحمته .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ مثل ذلك الذى سبق من الآيات البينات الواضحات نفصل ونوضح ليتبين الرشد من الغى ولتتضح سبيل المجرمين ، وينكشف خداعهم ، فالحق واضح ، والمنادى صائح والطريق لائح ، وقد بدا الصبح لذى عينين : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[٢]. ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون ؟ ﴾[٣]. ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[٤].

﴿ وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٥] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٤٦) . ومسلم فى الإيمان (٤٨ ، ٤٩) .
(٢) الآية ٢٨ من سورة ص .
(٣) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة القلم .
(٤) الآية ٢١ من سورة الجاثية .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

الرد على المعاندين

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

المفردات : ﴿ **نهيت** ﴾ : صرفت وزجرت ﴿ **بينة من ربى** ﴾ : البينة كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية والآيات الحسية . ﴿ **يقص** ﴾ : يذكر ﴿ **الفاصلين** ﴾ : الفصل القضاء والحكم .

يا أيها الرسول قل لهؤلاء المشركين . إنى نهيت وصرفت عن عبادة ما تدعونهم وتطلبون منهم الخير ودفع الضر من صنم أو وثن أو عبد مهما كان شأنه صرفت عن هذا كله بالآيات القرآنية والآيات الحسية. وما ركب الله فى من عقل رشيد وروح طيبة طاهرة وفطرة سليمة بعيدة عن أسر التقليد وقيد الجهل وداء الحسد .

قل لهم لا أتبع أهواءكم فإن عبادتكم غير الله سندها وحجتها الهوى فقط ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[1] أما عبادة الله فلها الحجة البالغة والبرهان الساطع .

وفى كل شىء له آيـــــــة   تدل على أنــــه الواحــــد

وعبادة غير الله ضلال وشرك فإن اتبعتكم فقد ضللت إذا وما أنا فى عداد المهتدين وفى هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية فى شىء وهم فى ضلال مبين قل لهم إنى فيما أخالفكم فيه من عبادة غير الله وفيما أدعوكم إليه من عبادة الله على بينة من ربى وحجة واضحة لا تقبل شكا ولا جدلا ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾[2] فالقرآن هو الحجة البينة والمعجزة الخالدة والآية الباقية التى تقوم مقام قول الله :

صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى وأما أنتم فقد كذبتم بالقرآن واتبعتم الشيطان وكفرتم بالرحمن ، ياللعجب تكذبون بالقرآن . وما دعا إليه وتدعون إلى اتباع الهوى والضلال والتقليد الأعمى فبئس ما تصنعون !

وكانوا يشتبهون فى القرآن ورسالة النبى ﷺ لأن الله لم ينزل عليهم ماطلبوا فأزال القرآن هذا بقوله للنبى ﷺ .

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٢ من سورة البقرة .

قل لهم ما عندى ما تستعجلون به وتطلبونه على عجل من الله ولم أقل لكم إنى أقدر على هذا ، وما الحكم فى هذا إلا لله الواحد القهار ، وكل شىء عنده بمقدار ، والله يقص القصص الحق فى وعده ووعيده ، وهو خير الحاكمين .

قل لهم لو أن عندى ما تستعجلون به ، ولو أن الله أمكننى من إيقاع العذاب بكم وجعله من قوتى الكسبية لأوقعته عليكم ، ولقضى الأمر بينى وبينكم ، والله قد وعدنى النصر ووعده الحق وقد تحقق ما وعد .

وهناك حديث عن أبى هريرة يفيد ان ملك الجبال ناداه وقال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثنى ربك لك لتأمرنى بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله .

والملخص فى هذا : أن هذه الآية دلت على سؤالهم العذاب وجوابه ﷺ والحديث ليس فيه سؤال بل عرض عليه ملك الجبال فلهذا استأنى بهم وترفق عليهم والله أعلم بالظالمين . كيف يعاقبهم ؟ ومتى يعاقبهم وعلى أى صورة يكون جزاؤهم ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

كمال علمه سبحانه وتعالى

* وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

المفردات : ﴿ **مفاتح** ﴾ : جمع مفتح وهو المخزن أو جمع مفتح وهو المفتاح الذى تفتح به الأقفال . ﴿ **يتوفاكم** ﴾ : التوفى أخذ الشىء وافيا كاملا ، والتوفية إعطاء الشىء تاماً وافيا وهو يطلق على الموت والنوم . ﴿ **جرحتم** ﴾ : كسبتم بالجوارح ويستعمل اللفظ فى الشر والخير والاجتراح فعل الشر خاصة . ﴿ **يبعثكم** ﴾ : يوقظكم من النوم . ﴿ **حفظة** ﴾ : هم الكرام الكتبة من الملائكة .

المناسبة

طلبوا من النبى آيات خاصة ، كما تقدم ، واستعجلوا بها فرد القرآن عليهم بأن الكل فى قبضته وهو القاهر فوق عباده ، ولا يملك الرسول شيئاً ثم بين هنا أن ما استعجلوه به ليس فيما يدخل فى علم النبى حتى يخبرهم فى أى وقت يقع ، وإنما هو مما استأثر الله بعلمه ، وهو العليم بكل شىء .

عنده وحده سبحانه ما يتوصل به إلى الغيب المحجوب عن الكل ، أى عنده علم الغيب ، إذ العلم صفة تنكشف بها لله سبحانه وتعالى معلومات الغيب والشهادة ، وإنما أطلق المفتاح وأراد العلم للإشارة إلى أن الغيب المستور فى أماكن بعيدة لا يصل إليها أى مخلوق ، كالخزائن المغلقة بالأبواب والأغلاق ، ولها مفاتيح محكمة وقيل المعنى وعنده خزائن الغيب على أن المراد بالمفاتيح الخزائن .

لا يعلمها إلا هو وحده الذى يعلم السر وأخفى وهذه الجملة إذن توكيد للجملة السابقة ، وهو يعلم كل ما فى البر وكل ما فى البحر ، فهو يعلم المشاهدات كما يعلم المغيبات ، والله يعلم ما تسقط من ورقة فى أى زمان أو مكان ، فهو يعلم الأحوال المتعلقة بالذوات السابقة إذ سقوط الورق حال فى الأحوال ، وذكره إشادة إلى جميع الأحوال . وليست هناك حبة فى ظلمات الأرض السحيقة ، وأغوارها البعيدة ، ولا شىء رطب ، ولا شىء يابس ، أى ولاحى بالمعنى العام ولا يابس إلا فى مكنون علمه الثابت الذى لا يمحى ، كما أن الشىء المسجل المكتوب كتابة لا يمحى ، وقيل المعنى كل ذلك فى اللوح المحفوظ والله أعلم بكتابه . والخلاصة أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة ، والأحوال الظاهرة والباطنة ، والرطبة واليابسة . أما أنتم أيها الناس .. فالله يتوفاكم بالليل أى ينيمكم فيه ، ويقبض أرواحكم إليه ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، ويعلم ما كسبتم فى النهار علما سابقاً على عملكم ، فهو يعلم أن منكم من يكفر ، ومنكم من يعصى ربه ، ثم يعد هذا الموت الأصغر الذى فيه يقبض أرواحكم إليه ويعلم أعمالكم بعد ما يبعثكم فى الدنيا نهاراً ليعمل كل عمله ، وليقضى أجل مسمى عنده ، وعمر محدود لكل منكم ثم إليه مرجعكم بالموت الأكبر لا إله غيره ، ثم ينبئكم والمراد يجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وهو القاهر فوق عباده المتسلط عليهم ، المتصرف فيهم ، يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداما ، وإحياء وإماتة . وهو يرسل عليكم حفظة من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ﴿**وإن عليكم لحافظين۝كراما كاتبين۝يعلمون ما تفعلون**﴾ سورة الانفطار . سبحان الله .. ما أعجب شأننا .. علينا رقيب وعتيد .. يحصون علينا أعمالنا ويكتبون ولا يغفلون ، ومع هذا نعصى الله جهرة وسرا ؟ .. سبحانك أنت أرحم الراحمين ..

ولعل سائلا يقول : ما الحكمة فى الحفظة الكتبة والله أعلم بكل شىء والجواب أن المكلف إذا عرف هذا كان أزجر له وأبعد عنه الفحشاء والمنكر ، وأقرب إلى عقل بعض الناس ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[1] ..

(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

يرسل الحفظة الكرام البررة يحصون الأعمال مدة الحياة حتى إذا انتهى الأجل وتم القضاء ، وجاءت أسباب الموت ومقدماته ، توفته رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه ، والحال أنهم لا يفرطون ولا يقصرون بزيادة أو نقصان ، ثم ردوا بعد هذا جميعا إلى الله وإلى حكمه ، وما الحكم الحق الذى يعطى بالعدل إلا له ، له الحكم وإليه الأمر ، لارادّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، وهو أسرع الحاسبين يحاسب الكل فى أقل وقت وأسرعه لا يشغله شأن عن شأن وفى الحديث (إن الله يحاسب الكل فى مقدار حلب الشاة) .

من مظاهر القدرة والرحمة

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

المفردات : ﴿ **ظلمات البر والبحر** ﴾ : ظلمات الليل والسحب والمطر ، وقيل المراد ظلمات معنوية . ﴿ **تضرعا** ﴾ : التضرع المبالغة فى الضراعة والتذلل والخضوع . ﴿ **خفية** ﴾ : بالضم والكسر الخفاء والاستتار . ﴿ **الكرب** ﴾ : الغم الشديد .

يسلك القرآن المسالك المتعددة لغرس شجرة التوحيد فى قلوب العرب ببيان مظاهر القدرة والرحمة بالخلق ، فقال ما معناه : قل لهم : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟ ومن ينقذكم من شدائد الأيام وهولها ؟ ومن ينير لكم السبيل إذا غم الطريق وأظلم ، ومن يسكن على كل شىء ، تدعونه متضرعين متذللين مع رفع الصوت والبكاء ، وقد يكون فى السر والخفاء ، قائلين لئن أنجيتنا من هذه الظلمات لنكونن ممن يوحدك ويشكرك ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوُا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[1] قل لهم : الله ينجيكم من هذه الأهوال ومن كل كرب وغم ، ثم أنتم بعد هذا تشركون بالله غيره ، ومن هذا نفهم أن الإنسان بطبيعته يلجأ إلى الله فى الشدة والمكروه وفى النجاة ينسى نفسه ويعود إلى جهله .

قدرة الله على إيقاع العذاب على العصاة

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ

(١) الآية ٢٢ من سورة يونس

﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

المفردات : ﴿ **يلبسكم** ﴾ : من اللبس والمراد يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف وأصل التركيب يلبس عليكم أمركم . ﴿ **شيعاً** ﴾ : جمع شيعة وهم كل قوم اجتمعوا على أمر واتفقوا فيه . ﴿ **نصرف** ﴾ : نحولها من نوع إلى آخر من فنون الكلام . ﴿ **يفقهون** ﴾ : يفهمون بالدليل والحجة . ﴿ **مستقر** ﴾ : وقت استقرار وحصول .

قل لهؤلاء المشركين : الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً لا يعرف كنهه ولا يقف على حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى ، ينزل عليكم من فوقكم كالرجم بالحجارة والآفات أو يصعد إليكم من تحتكم كالزلازل والبراكين والخسف المعهود فى الأمم السابقة أو يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف ، حتى تكونوا فرقاً وشيعاً وأحزاباً وجماعات ، كل فرقة لها اتجاه خاص ولون خاص ، تتقاتلون وتتحاربون ، ويذيق بعضكم بأس بعض وشدته . حتى يقتل بعضكم بعضاً . وعن ابن عباس المراد بمن فوقكم فى الآية أمراؤكم ، ومن تحت أرجلكم أى عبيدكم وسفلتكم ، انظر يا من يتأتى منه النظر كيف نصرف الآيات ، ونقلبها على وجوهها المختلفة ، لعلهم بهذا يفقهون الحق ، ويدركون السر ، ولاشك أن التنويع فى الأداء وطرق الأبواب فى الحجج ، سبيل إلى الفهم وإدراك الحقائق ، ولكن عند من ينظر النظر البرىء الخالى من الحجب الكثيفة الموروثة كالتقليد .

وقد كذب بالقرآن قومك ، وهو الحق الذى لاشك فيه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . قل لهم لست عليكم بوكيل : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[١] لكل نبأ مستقر ، تظهر فيه حقيقته ، ولكل أمة أجل ، ولكل أجل كتاب تعلمون به صدق الوعد والوعيد ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[٢] .

والعذاب فى الآية ورد منكراً فيشمل المجاعة والقحط ، والصيحة والرجفة والريح الصرصر والزلازل والحجارة من سجيل والبراكين ويشمل ما تلقيه الطائرات وما تقذفه المدافع وما فى السفن والغواصات من الطوربيد والألغام التى تنفجر فتبيد الناس ، وما القنابل الذرية عنكم ببعيد . روى عن ابن عباس من طريق أبى بكر بن مردويه عن النبى ﷺ قال : (دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع اثنتين دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض وألا يلبسهم شيعا ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع الآخرين)[٣] .

(١) الآية ٤٥ من سورة ق . (٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٣٥ ، ٣٢٥) .

وقد تأكد كلام الرسول ﷺ فها هى ذى الأمة المحمدية قد وقاها الله من الخسف والرجم ، وأكرمها لأجل نبيها فلم يعذبها بعذاب الاستئصال . وأما الخلافات الحزبية والفرق والشيع ، وقتال بعضنا لبعض فظاهر للعيان ولا يزال الشر يأتينا من هذا الباب وأن بعضنا سبب الويل بنفاقه مع المستعمر واتحاده معه واستخدام الأجنبى له وما الحوادث التى تترى علينا ونشاهدها ببعيدة . وفى حديث ثوبان (وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً)

ومازال ملك للمسلمين إلا بسبب نزاعهم وخلافهم ، واتصال بعضهم بالأجنبى العدو اللدود .. تنبهوا ياقوم وارجعوا إلى دينكم وقرآنكم فالخير لايمكن أن يكون إلا فيه وتذكروا . وإنما يتذكر أولو الألباب .

المستهزئون بالقرآن وجزاؤهم

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ **يخوضون** ﴾ : أصل الخوض الدخول فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء أى مجاهلها تشبيها لها بغمرات الماء ، والمراد الاندفاع فى الحديث والاسترسال فيه والدخول فى الباطل مع أهله . ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ : انصرف عنهم . ﴿ **الذكرى** ﴾ : التذكر . ﴿ **ولكن ذكرى** ﴾ : المراد تذكيراً . ﴿ **تبسل نفس** ﴾ : البسل حبس الشىء ومنعه بالقوة ومنه أسد باسل ، وشجاع باسل أى يحمى نفسه ويمنعها ، المراد حبسهم فى النار ومنعهم من الثواب . روى عن سعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت فى المشركين المستهزئين بالقرآن والنبى ﷺ .

وإذا رأيت يا محمد وكذا كل مسلم . الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والاستهزاء ، فأعرض عنهم ، ولا تجالسهم حتى يخوضوا فى غير حديث الكفر والاستهزاء ، ومثلهم من يخوضون فى القرآن بتأويله تأويلا باطلا يوافق أهواءهم واتجاههم ، لاتجالسهم وابتعد عنهم ، وقد روى هذا الرأى عن ابن عباس

رضى الله عنه ، ولعل السر فى ذلك أنك إذا أعرضت عنهم وقمت من مجلسهم كان أدل على عدم مشاركتهم فيما يقولون ، وعلى عدم الرضا عما يفعلون وهذه بلاشك أدعى للكف عن الخوض والاستهزاء غالباً ، وإذا خاضوا فى غير ذلك الحديث فلا مانع من مجالستهم والتحدث إليهم . قال القرطبى : ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكراً ، وعرف أنه لا يقبل منه و عظاً ولا نصيحة فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه وإن أنساك الشيطان قبح مجالستهم والنهى عنها ، ثم تذكرتها فلا تقعد بعدها مع هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم بالتكذيب والاستهزاء .

وهنا بحث بسيط :

هل يجوز على النبى ﷺ النسيان ؟ وإذا جاز فهل فى كل شىء أم فى شىء خاص ؟ والجواب عن الأول يجوز النسيان عليه بغير وسوسة من الشيطان ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾[1] وقد ثبت وقوعه من آدم ﴿ فنسى ولم نجد له عزماً ﴾[2] ومن موسى ﴿ لا تؤاخذنى بما نسيت ﴾[3] وثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ سـهـا فى الصلاة وقال (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى)[4] .

إنساء الشيطان للإنسان بعض الشىء ليس من قبيل السلطان عليه والتصرف فيه ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[5] والجواب عن الثانى أن الصحيح أن النبى ﷺ لا ينسى فيما يبلغه عن ربه ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾[6]

وقيل يجوز أن ينسى والله ينبهه حتما . وما على الذين يتقون الله ويتركون غيرهم يخوضون فى الباطل ويستهزئون بالقرآن من شىء أبدا ولكن إذا تركوهم بعد الموعظة وأعرضوا عنهم فهم يذكرونهم بهذا لعلهم يتقون الله فلا يخوضون فى غمرات الشرك مرة ثانية حياء ممن يجالسهم أو كراهة إساءتهم .

وقيل المعنى ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى فلعلهم يتقون الله . يا أيها الرسول . دع الذين اتخذوا دينهم الذى كان يجب أن يتبعوا ويهتدوا به اتخذوه لعباً ولهواً فإنهم لما عملوا هذه الأعمال التى ختم الله بها على قلوبهم ودس بها نفوسهم ولم يعملوا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون فقد أضاعوا عمرهم فيما لا يفيد وهذا هو اللعب وشغلوا أنفسهم عن الجد والعمل المفيد ، وهذا هو اللهو وغرتهم الدينا وغرهم بالله الغرور ، أعرض عنهم ، ولا تبال بأمثال هؤلاء ، وذكر به من يخاف وعيد ، خوف أن تبسل كل نفس فى الآخرة بما كسبت ، وترهن بما عملت ، وتحبس بما قدمت ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[7] ليس لكل نفس من دون الله ولى يلى أمرهم ويدفع عنها شرها وليس لها شفيع يشفع لها ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[8] وكيف يكون غير هذا وإن تفد النفس نفسها بكل فدية وعدل يتساوى مع الذنب

(١) الآية ٢٤ من سورة الكهف . (٢) الآية ١١٥ من سورة طه . (٣) الآية ٧٣ من سورة الكهف .
(٤) أخرجه البخارى فى الصلاة (٣١) . ومسلم فى المساجد (٨٩) . وأبو داود فى الصلاة (١٩٠) . والنسائى فى السهو (٢٥) وابن ماجه فى الإقامة (١٣٣) . (٥) الآية ٦٩ من سورة النحل . (٦) الآية ١٦ من سورة القيامة .
(٧) الآية ٣٨ من سورة المدثر . (٨) الآية ١٨ من سورة غافر .

لا يقبل منها أصلا ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾[1] أولئك الذين اتخذوا القرآن هزواً وسخرية واتخذوا دينهم لعباً ولهواً حرموا الثواب وأسلموا أنفسهم للعذاب وحبسوا فى نير العقاب ولهم شراب من حميم وغساق جزاء من ربك وفاقا ولهم عذاب أليم .

الإسلام والشرك

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

المفردات : ﴿ **أعقابنا** ﴾ : جمع عقْب وهو مؤخر الرجل وتقول العرب فيمن أحجم بعد إقدام رجع على عقبيه ، ونكص وارتد على عقبه ، ورجع القهقرى . ثم صار يطلق على كل تحول مذموم . ﴿ **استهوته الشياطين** ﴾ : ذهبت بعقله وهواه . ﴿ **حيران** ﴾ : تائها ضالا عن الجادة لا يدرى ما يصنع . ﴿ **الصور** ﴾ : القرن وهو كالبوق ينفخ فيه فيصعق من فى السموات والأرض ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .

قال السدى : « قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عز وجل : ﴿ **قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا** ﴾ أى فى الكفر (بعد إذ هدانا الله) فيكون مثلنا مثل الذى استهوته الشياطين فى الأرض ، يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق ، فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : إئتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ . ومحمد هو الذى يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام » رواه ابن جرير .

ثم قرر سبحانه وتعالى أن هداه هو الهدى الحقيقى الذى لا يزيغ عنه إلا هالك . فمن سار على هذا الطريق لا تزل قدمه ، ولا تتغير خطاه ، ومن حاد عنه فهو كالذى استهوته الشياطين بضلالها وعتوها وطغيانها وفجورها ، فصار فى الأرض حيران ، وكفى بالحيرة ضلالاً وبهتاناً ، وهل من ابتلى بالحيرة يقر له قرار أو يطمئن له جنان .

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة البقرة .

وكيف يحار من علم أن القرآن : هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، الذى لا تضل به الأفئدة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء .

الله أكبر إن ديـــن محمـــد ... وكتابه أقـوى وأقـوم قيـلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قل لهم يا محمد : وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، ونذعن لأوامره . ونتبع أحكامه ، ونسلك طريقه ﴿ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾[1] . ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[2] ﴿ قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ﴾[3] .

سبحانك اللهم أنت الواحـــد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهباً وكل الكائنـات توحـد
يا حى يا قيـــوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد
أنت الإلـه الواحد الحق الـذى ... كل القلوب له تقـر وتشهـد

وكما أمرنا لنسلم لرب العالمين ، كذلك أمرنا بإقام الصلاة، وتقوى الله ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه ، وإقامة الصلاة أداؤها تامة مستقيمة مستوفية شروطها وأركانها ، وإذا كان الناس فى زماننا هذا يعرفون وجوب الصلاة من الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، ويعرفون شروط صحتها كستر العورة ، ودخول الوقت ، والطهارة ، واستقبال القبلة ، إن كان يعرفون ذلك فقد غفل كثير منهم عن معرفة شروط قبولها ، وهى مسألة من الأهمية بمكان ، إذ ما قيمة شىء يؤدى على غير وجه من القبول ، وقد اجتمع شروط قبولها فى حديث قدسى جامع مانع قال تعالى .

﴿ إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين ، وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ﴾ ثم يعقب الحديث بعد ذلك مبيناً ما لهؤلاء من الفضل فيقول تعالى ﴿ ذلك نوره كنور الشمس ، أكلأه بعزتى ، واستحفظه ملائكتى ، اجعل له فى الظلمة نوراً وفى الجهالة حلماً ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة ﴾ .

فياليت قومى يعلمون بما للمصلين من أجر وفضل عند ربهم ولما كان للصلاة تلك المكانة، فقد بدأ الله بها مكارم الأخلاق ، وكريم الشمائل ، وختمها بها ، ففى سورة المؤمنون يقول تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ،

---

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام .

والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾[١] ثم يختم الله تلك الصفات النبيلة فى الصلاة فيقول ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ .

وفى سورة المعارج يذكر الله المصلين ثم يذكر الصفات التى يتحلى بها المؤمنون ثم يختمها بذكر الصلاة أيضاً قال تعالى ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾[٢] وبعد ذكر صفات المؤمنين يقول تعالى ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **وهو الذى إليه تحشرون** ﴾ أى هذا الذى هو جدير بأن تعبدوه وتوحدوه ولا تشركوا به شيئاً ، هو الذى ستحشرون إليه وحده ، فلا ملجأ لكم ولا ملجأ من الله إلا إليه ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٣] فإليه المآب والرجعى ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ، واليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

تالله لو عاش الفتى فى دهره	ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذاً فيها بكل نفيسة	متمتعاً فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة	كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى	بمبيت أول ليلة فى قبره

إن هذا الإله القادر هو المعبود بحق ، ومن مظاهر عظمته وقدرته أنه خلق السموات والأرض بالحق قال سبحانه ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾[٤] وقال جل شأنه ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[٥] وقال سبحانه ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[٦] .

واذكر أيها المخاطب يوم يقول كن فيكون .

فسبحان من أمره بالكاف والنون وسبحان من يدبر الكون ويفصل الآيات ويخلق ما يشاء ويختار ومن صفات هذا الإله القادر أنه لا يقول إلا الحق ، قوله الحق وله الملك هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

واذكر أيها المخاطب يوم ينفخ فى الصور ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٧].

(١) الآيات ١ - ٨ من سورة المؤمنون .
(٢) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة المعارج .
(٣) الآية ١٨ من سورة الحاقة .
(٤) الآية ٨٥ من سورة الحجر .
(٥) الآية ١٦ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة الدخان .
(٧) الآيات ١٣ - ١٨ من سورة الحاقة .

ومن صفات هذا الإله القادر ﴿ إنه عالم الغيب والشهادة ﴾[1] ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[2] .

فيا دنيا أين بحارك ، وأين أنهارك ، وأين أشجارك ، وأين قصورك ، أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين عاشوا فى خير الله وعبدوا غير الله ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

ولى فى فناء الخلـق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقـة راق

شخوص وأشكال تمر وتنقضى تفنى جميعا والمهيمن باق

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾[3] . ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[4] . ﴿ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾[5] . ومن صفات هذا الإله القادر أنه هو الحكيم الخبير . حكيم تنزه فعله عن العبث خبير أحاط بدقائق الأشياء علماً وأحاط بدقائقها وأحصاها عدداً .

إبراهيم مع أبيه وقومه

*وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

المفردات : ﴿ **إبراهيم** ﴾ : خليل الرحمن وأبو إسماعيل وجد العرب وأبو الأنبياء عليهم السلام جميعاً ، آزر أبو إبراهيم أو عمه وقيل غير ذلك . ﴿ **ملكوت** ﴾ : ملك الله وسلطانه فيها . ﴿ **جن عليه الليل** ﴾ : ستره بظلمته . ﴿ **كوكبا** ﴾ : نجماً مضيئاً . ﴿ **أفل** ﴾ **الأفول** : غيبوبة الشيء بعد ظهوره . ﴿ **بازغاً** ﴾ **البزوغ** : ابتداء الطلوع . ﴿ **فطر السموات والأرض** ﴾ : أخرجها إلى الوجود لا على مثال سابق . ﴿ **حنيفا** ﴾ : مائلا عن الشرك والضلال .

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة غافر .
(٣) الآيتان ٢٣ من سورة الحجر .
(٤) الآية ٤٣ من سورة مريم .
(٥) الآية ٤٣ من سورة ق .

وهذا مشهد مهيب من مشاهد التوحيد ، وقف فيه إبراهيم موقف العزة بمقام الوحدانية ، فكل الأنبياء عملوا بمعسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾[1] .

قال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)[2] وقال ﷺ (جددوا إيمانكم قالوا : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إلّه إلا الله)[3] .

إنها كلمة التوحيد ، عليها نحيا وعليها نموت، وفى سبيلها نجاهد، وعليها نلقى الله .

ولقد جاهد إبراهيم أصدق الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وضرب الشرك فى جبهتين من أعتى الجبهات : جبهة الأصنام ، وجبهة الكواكب ، قال لأبيه : ﴿ **أتتخذ أصناما آلهة** ﴾ وسواء أكانت تلك الأصنام بشراً أو حجراً أو حديداً أو معدنا من المعادن فكلها معبودات باطلة ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[4] .

ولقد أخذ إبراهيم يخاطب أباه بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة : ﴿ **أتتخذ أصناما آلهة** ﴾ هذا استفهام تسيل له الكبد مرارة ، والفؤاد لوعة ، فماذا كان رد أبيه عليه ، اقرأ معى قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لما تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أنّ يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم . لإن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . واعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾[5] ولما رأى إبراهيم من أبيه إصراراً على ما هو عليه تبرأ منه قال الله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[6].

وهكذا دار الصراع بين الحق والباطل ، وبين سماحة الحق وحماقة الباطل .

وقعت أحداث خطيرة ، فإن إبراهيم ظل صامداً فى دعوته لا تؤثر فيه الأحداث الجسام ، لأن الله تعالى أيده بروح من عنده ، وثبت قلبه باليقين ، فقد أعمل بصره وبصيرته فى علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين، فأراه الله ملكوت السموات والأرض ، وما اشتملت عليه الكائنات من أدلة وبراهين تؤكد

---

(١) الآيات ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٨ ، ٣٣) . ومسلم فى الإيمان (١ ، ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٥) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٣٥٩) .

(٤) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٤١ – ٤٩ من سورة مريم .

(٦) الآية ١١٤ من سورة التوبة .

من قبائح اليهود

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

لا يزال الكلام فى أهل الكتاب ، وتعداد سوءاتهم وقبائحهم ، خصوصاً اليهود تالله ﴿ **لقد أخذنا** ﴾ العهد الموثق على ﴿ **بنى إسرائيل** ﴾ ليؤمنن بالله ورسله ولا يكتمونه أبداً ، ﴿ **وأرسلنا إليهم رسلاً** ﴾ يؤكدون هذا العهد ويجددون هذا الميثاق حتى يكونوا على ذكر منه أبداً ، ولكنهم اليهود ﴿ **كلما جاءهم رسول** ﴾ من عند الله بما لا تهواه أنفسهم ، لأنهم لا يهوون إلا الشر ، ناصبوه العداء ، وساموه سوء العذاب ، وكأن سائلا سأل وقال : ماذا كانوا يفعلون ؟ فأجيب ﴿ **فريقا** ﴾ منهم ﴿ **كذبوا** ﴾ ولم يؤمنوا ﴿ **وفريقا** ﴾ منهم كانوا ﴿ **يقتلون** ﴾ من غير ذنب ولا جريرة ، إلا أنهم كانوا يقولون : ربنا الله لعنهم الله قد ظنوا ظنا يكاد يكون كاليقين : أنهم لا تكون لهم ﴿ **فتنة** ﴾ أبداً ولا يختبرون بالشدائد أصلا ، وكيف يكون هذا وهم كما يعتقدون أبناء الله وأحباؤه ، وهم من نسل الرسل الكرام فلا يعذبون بذنوبهم أبداً . ﴿ **فعموا** ﴾ لهذا ﴿ **وصموا** ﴾ عن آيات الله التى أنزلها فى كتبه وعموا عما يحصل لهم من الإنذارات والشدائد ، فلم يتعظوا بشىء أبداً ، وصموا عن سماع القوارع من الحجج والآيات البينات ثم تابوا بعد عبادتهم العجل ، وقبل الله توبتهم ﴿ **ثم عموا وصموا** ﴾ مرة ثانية حيث طلبوا رؤية الله وقتلوا الأنبياء كزكريا ويحيى ، وحاولوا قتل عيسى بن مريم وخالفوا أوامر الله ورسله . وقوله تعالى ﴿ **كثير منهم** ﴾ يفيد أن أكثرهم العصاة ، وأقلهم المؤمنون الصالحون ، وأما نحن أيها المسلمون حذار حذار من ادعائنا وغرورنا بدون العمل ، حذار حذار من ألا نلتفت إلى التنبهات و القوارع التى تصيبنا ، حذار من أن ينطبق علينا هذا الكلام .

الإله عند المسيحيين

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ

وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

تالله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ وكيف لا يكفرون وقد ضلوا ضلالا بعيداً جداً عن العقل والدين ، إذ هم يقولون إن الله مركب فى ثلاثة أقاليم أى « أصول » : الأب والابن والروح القدس . وقد حل الأب فى الابن واتحد وكون روح القدس وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخر والثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ... ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[1] على أن خلاصة أقوالهم : إن الله هو المسيح ، والمسيح هو الله ولقد رد القرآن عليهم : كيف تقولون هذا البهتان ، وقد قال المسيح بن مريم ﴿ **يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفاً بأنه ربه وربهم ، ودعاهم إلى التوحيد الخالص من كل شرك ، وهذا هو عيسى يحذرهم عاقبة الشرك والوثنية : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين** ﴾ أنفسهم باتخاذ الشركاء والآلهة من نصير ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم وينقذهم ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[2] ﴿ **لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ أى واحد من ثلاثة التى هى الأقانيم الثلاثة ﴿ **وما من إله** ﴾ فى الوجود يستحق العبادة ﴿ **إلا إله واحد** ﴾ أحد فرد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾[3] سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ أعموا ﴿ **فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه** ﴾ ويرجعون إليه ﴿ **والله** ﴾ كتب على نفسه الرحمة وهو الغفور الرحيم . أما حقيقة المسيح عيسى بن مريم : فهو رسول كبقية الرسل أيد بالمعجزات الخوارق للعادة كالنبيين السابقين وكما أيد المصطفى ﷺ بالمعجزة الباقية الخالدة (القرآن) ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾[4] وأما أمه فهى الصديقة الطاهرة المطهرة نفخ الله فيها من روحه ، وصدقت بكلمات ربها فكانت من القانتين ، وأما حقيقتهما الشخصية والنوعية فمساوية لسائر البشر بدليل أنهما ﴿ **يأكلان الطعام** ﴾ ليقيما به أودهما ومرت بهما ظروف خاصة وعامة كغيرهما وهما يذهبان إلى الخلاء ليقضيا حاجتهما ! فهل يكون أمثال هذين آلهة تعبد !؟ ﴿ **انظر** ﴾ يا من يتأتى منك النظر ﴿ **كيف نبين لهم الآيات** ﴾ ثم بعد ذلك يغالون فى البعد عن المنطق السليم وكيف ﴿ **يؤفكون** ﴾ يصرفون عن استبانة الحق كأن عقولهم فقدت بسبب التقاليد وظيفتها .

---

(١) من الآية ٥ من سورة الكهف .
(٢) من آية الكرسى : ٢٥٥ سورة البقرة .
(٣) من سورة الأخلاص .
(٤) من الآية : ١٧١ من سورة النساء وقد سبق تفسيرها .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ .

تفسير المفردات :

﴿ **الغلو** ﴾ : الإفراط وتجاوز الحد . ﴿ **أهواء** ﴾ : آراء قوم دعت إليها الشهوة دون الحجة والبرهان . ﴿ **لعن** ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة . ﴿ **يعتدون** ﴾ : يتجاوزون حدود الله . ﴿ **لا يتناهون** ﴾ : لا ينهى بعضهم بعضاً . ﴿ **يتولون الذين كفروا** ﴾ : يتخذونهم أولياء وأنصاراً وأعواناً . ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ : أسلوب ذم . والمعنى : قبح فعلهم وساء .

التفسير

لما بيّن الله تعالى حقيقة المسيح وأمّه فى كلمات موجزة وجيزة وقال : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام ﴾(١) لما بين الله ذلك جاء الخطاب موجها إلى الصادق المعصوم ولكل عاقل منصف ﴿ **قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً . والله هو السميع العليم** ﴾ وهذا أسلوب استفهام إنكارى فيه توبيخ وتقريع : أى ما كان ينبغى لكم أيها العقلاء أن توصدوا أبواب المعرفة وتغلقوا نوافذ العلم ، وتعطلوا وظائف الحواس . فتتجاوزوا الحدود وتعبدوا من دون الله مالا يملك ضراً ولا نفعاً لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا سواء أكان المعبود بشراً أم حجراً أم حديداً أم ملكاً كريماً .

(١) من الآية ٧٥ سورة المائدة .

فيا من عبدتم المسيح هل كان المسيح إلا كما قال الله تعالى فيه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾[١] هل كان إلا بشرا يأكل الطعام ؟ وفى التعبير يأكل الطعام ما يفيد أن الطعام يتحول بعد الهضم والامتصاص إلى خلايا تقوم ببناء الأنسجة ، وتقوم الأنسجة ببناء الأعضاء التى تقوم بتكوين الأجهزة .. إن من كان شأنه كذلك فلا بد أن يجرى عليه ما يجرى على بقية البشر من نوم ويقظة ومرض وصحة وإخراج للفضلات من بول وغائط وعرق ، ولا بد أن يموت ، فكيف يُتصور أن من كان شأنه كذلك يُعبد من دون الله ؟ ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾[٢] .

إن الضار النافع هو الله ، والقابض الباسط هو لله ، والمعطى المانع هو الله ، والخافض الرافع هو الله ، والمحيى المميت هو الله ، والمعز المذل هو الله ، والسميع العليم هو الله .

قوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق** ﴾ : الغلو مذموم لأنه تجاوز المعقول ولأنه إفراط والافراط رذيلة ، كما أن التفريط كذلك . والاعتدال فضيلة ، لذا جاء الإسلام وسطا . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾[٣] أى عدولاً . وقال جل شأنه فى مدح الوسطية : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾[٤] . وقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾[٥] . وقال : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾[٦] . حتى لما قال بنو إسرائيل عن البقرة : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾[٧] . ولما كان الغلو ممقوتا مذموما وصف الله تعالى بأنه ﴿ **غير الحق** ﴾ . لذا كان السيد الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا : عبد الله ورسوله » . ومن ثم فإن المسيح وهو فى المهد قال : ﴿ إنى عبد الله ﴾[٨] .

وخاتم الأنبياء المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم كان من أحب أسمائه إليه فى القرآن « عبد الله » ، فى قوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾[٩] . ومن عجب أنك تقرأ فى القرآن الكريم وفى أرقى المنازل وأرفعها تقرأ أخبار الله تعالى عن رسوله بعنوان العبودية . ففى مقام

(١) الآية ٥٩ سورة الزخرف .
(٢) الآية ١٧ سورة المائدة .
(٣) من الآية ١٤٣ سورة البقرة .
(٤) الآية ٦٧ سورة الفرقان .
(٥) الآية ٢٩ سورة الإسراء .
(٦) من الآية ١١٠ سورة الإسراء .
(٧) من الآية ٦٨ سورة البقرة .
(٨) من الآية ٣٠ سورة مريم .
(٩) الآية ١٩ سورة الجن .

الإسراء وهو مقام رفيع : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾[١] وفى مقام المعراج وهو مقام تناهى فى العلو والسمو تقرأ : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[٢] فالعبودية لله عز وربوبية الله للعبد فخر ، حتى كان بعضهم يناجى ربه فيقول : « كفانى عزا أن أكون لك عبداً . وكفانى فخرا أن تكون لى رباً » .

لذا كان هناك فرق شاسع بين أن يكون العبد عبدا مملوكا لغيره من البشر وبين أن يكون عبدا لله خالصا ، فالعبد المملوك لغيره من البشر يعود خيره على سيده ، والعبد المملوك لله وحده يعود خير سيده (وهو الله) عليه . من كان يريد العزة فلله العزة جميعا .

ومما زادنى شرفا وقدرا وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

ثم ينهى الله أهل الكتاب عن اتباع أهواء قوم عرفوا بالضلال والإضلال فقال : ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ فالضلال الأول مقيد بالقبلية ، أى أنهم كانوا أسبق ضلالا ، والإضلال الثانى متعدٍ إلى كثير ممن اتبعوهم ، والضلال الثالث مقيدٍ بأنه عن سواء السبيل . والهوى نوازع النفس إلى مسالك الشر ، ويشمل كل رأى صادر عن شهوة أو غرض ، لذا كان نهى النفس عنه درجة من درجات القرب إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ : هذا عقاب منه جلت قدرته لقوم كفروا من بنى إسرائيل ، فكان الكفر بمثابة الحيثية الأولى من هذا الحكم . نعم وهل يستحق اللعنة والطرد من رحمة الله إلا من توافرت فيه تلك الحيثيات . لقد لعن الله هؤلاء الكافرين من بنى إسرائيل على لسان السابقين من الأنبياء كداود وعيسى ابن مريم . قال العوفى عن ابن عباس : لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور وفى الفرقان .. وقد بين الله تعالى من أسباب لعنهم ما فيه مزدجر لغيرهم . فقال : ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ عصوا من ؟ عصوا المليك المقتدر ، جبار السماوات والأرض ، عصوا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، عصوا من يعلم السر وأخفى ، عصوا من أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا عصوا السميع الذى يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فوق الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، عصوا العليم الذى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

---

(١) من الآية ١ سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٠ سورة النجم .

(٣) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة النازعات .

وكانوا يعتدون ، يتجاوزون حدود الله فقد فرض الله تعالى فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها .

ومن أسباب لعنة الله لهم — بل من أقوى الأسباب ، شيوع المنكر فيهم ، ومع ذلك لا يتناهون عنه ، فقد كانوا يفعلونه ويجاهرون الله بالمعصية . وقد ذمَّ الله تعالى فعلهم هذا ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ . فتلك هى الأسباب كما بينها الله تعالى ، وهذا هو حكمه عليهم : لعنة وطرد من رحمة الله . وما جرى عليهم يجرى على غيرهم من الأمم إن هم فعلوا فعلهم . فقد أعد الله تعالى الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشيا . وأعد النار لكل عاص ولو كان حرا قرشيا . وقد حدثنا القرآن الكريم عن تدمير الله لقرى لوط فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك ﴾[1] . ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وماهى من الظالمين ببعيد ﴾[2] . وأشد ما تبتلى به الأمم وتصاب به المجتمعات شيوع المنكر بين أفرادها . قال رسول الله ﷺ . « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض — ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم** ﴾ إلى قوله ﴿ **فاسقون** ﴾ — ثم قال — كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا » رواه الترمذى .

إن قاعدة إصلاح المجتمع تقوم على التناصح فالناس بخير ماتناصحوا : قال ﷺ : الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » فالنصيحة هى ركن الدين الأعظم . لذا نهى الإسلام عن الغش والنفاق . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾[3] . وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا » وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نذكر منها ما يوفى هذا المقام حقه :

قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسىء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كم لعنهم » .

قال ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » . رواه الترمذى .

(١) الآية ٨٢ وجزء من الآية ٨٣ سورة هود .
(٢) جزء من الآية ٨٣ سورة هود .
(٣) الآية ١٤٥ سورة النساء .

قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .

قال ﷺ : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرون فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » . رواه الإمام أحمد .

قال النبى ﷺ : « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها ، كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » رواه أبو داود .

قال النبى ﷺ : « لن يهلك الناس حتى تعذروا أو يعذروا من أنفسهم » .

عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال : « ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » قال فبكى أبو سعيد وقال : قد والله رأينا أشياء فهبنا .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه الترمذى .

قال رسول الله ﷺ : « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال « يرى أمر الله فيه فقال ثم لا يقول فيه فيقول الله له يوم القيامة ما منعك أن تقول فى كذا كذا وكذا فيقول خشية الناس فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى » .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لعنه الله عبدا حجته قال يارب رجوتك وفرقت الناس » .

قال ﷺ : « لا ينبغى لمسلم أن يذل نفسه » قيل وكيف يذل نفسه قال « يعترض من البلاء لما لا يطيق » رواه الترمذى .

عن أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال « إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم » قلنا يارسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا ، قال . الملك فى صغاركم والفاحشة فى كباركم والعلم فى رذالكم » . قال زيد تفسير معنى قول النبى (ﷺ) والعلم فى رذالكم إذا كان العلم فى الفساق » تفرد به ابن ماجه .

قوله تعالى ﴿ **ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا** ﴾ وهذه جريمة أخرى من جرائم اليهود الذين اتخذوا من كفار مكة وقبائل المشركين أعوانا وأنصارا وأولياء . فقد سأل الكفار حُيَيِّ بنْ أخطب : أيّنا على حق ؟ أنحن أم محمد . فقال لهم : بل أنتم على حق ومحمد على ضلال . قالها وهو يعلم علم اليقين أنه كاذب فقد قرأ صفة النبى (ﷺ) فى التوارة ، وقد ذكر الله هذا الموقف الأليم فى قوله :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾[١] . وقد ذم الله تعالى صنيعهم هذا فقال عز من قائل ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون** ﴾ . فى هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على كفر هؤلاء المارقين ، فإنهم لو كانوا يؤمنون بالله ربا ومحمد ﷺ نبيا والقرآن كتابا منزلا من عند الله ما اتخذوا الكافرين أولياء إذ أن اتخاذهم أولياء دليل على جحودهم وتمردهم على المؤمنين . ثم بين الله تعالى العلة فى اتخاذهم الكافرين أولياء فقال : ﴿ **ولكن كثيرا منهم فاسقون** ﴾ أى خارجون على حدود الله عاصون لأوامره مخالفون لآيات وحيه وتنزيله وهذا هو شأن اليهود فى كل زمان ومكان يضمرون الحقد والبغضاء للجماعة المؤمنة ويناصبونها أشد العداء ويحقدون على رسول الله ﷺ حقدا أسود ويتآمرون عليه ويحاولون كثيرا القضاء عليه بالسم مرة والخديعة أخرى ، ولكن الله تعالى يعصمه ويرعاه وعين الله تلكؤه وتحميه . إنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا .

(١) الآية ٥١ سورة النساء .